المكتبة الثقافية
جامعة حرة
٢٣٣

مع الملاح التائه

علي محمود طه

تأليف
دكتور عبد الستار الحلوجي

دار
الكاتب العربي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربي)
١٩٧٠

مقـدمة

عهـدى بالملاح التـائه يرجع اكثـر من عشر سنوات ، حينما أتيح لى أن اقرأ له وأن اصحبه فترة من الزمن قصـيرة ، ولكنها كانت كافية لأن تسكب فى نفسى حبا له واعجابا به وأملا فى ان تتـاح لى الفرصة لصحبة طويلة تمكننى من أن اتعمقه وانفذ الى دخيلة نفسه واقف على أسرار فنه وعبقريته ٠

ومرت الأيام والأمل يكبر فى نفسى حتى قدر لى أن اسافر الى انجلترا عام ١٩٦١ وأن اعيش فيهـا طالب علم لثلاثة اعوام متتالية ٠ وهناك ، وجدت بى حنينا الى الملاح التـائه وشوقا الى صحبته وقراءة أشـعاره من جديد ٠ وانتهزت فرص الفراغ التى كانت تتاح لى فى الصيف فكنت أقبل على الشاعر وأصغى الى صوته بالسمع والقلب والعقل جميعا ، حتى اذا شغلتنى شـواغل الدراسة انصرفت عنه لشهور قد تطول ٠

ففي بلاد الضباب ولدت فكرة هذا الكتاب ، وفي العاصمة الانجليزية بدأت فصوله ، ومن هناك عدت محملا بالأفكار التي لم أتمكن من تسجيلها الا بعد العودة الى أرض الوطن . وهكذا أراد الله لهذا الكتاب أن يبدأ على ضفاف التيمز وأن يختم على ضفاف النيل .

واذا كنت في الصفحات التالية قد صحبت الملاح التائه في رحلة الحياة من المهد الى اللحد ، واذا كنت قد تعرضت لعناصر ثقافته ولخصائص شاعريته، فلست أزعم اني قد وفيته حقه من الحديث ، ولست أدعي أن هذا هو كل ما يمكن ان يقال عن علي محمود طه . فهو شاعر خصب تتشعب جوانب الحديث عنه حتى ليصعب حصره في صفحات معدودة كهذه التي بين أيدينا ، والتي اردت بها أن تعرض له صورة تجلو لنا ملامح شخصيته ومقومات فنه ، وتستمد خطوطها وظلالها من واقع أشعاره وكتاباته .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن تكون الصورة قدبلغت من الدقة والوضوح بعض ما أريد .

عبد الستار الحلوجي

من المهد إلى اللحد

على أرباض المنصورة

في تلك البيئة الشاعرية التي تتفتح فيها النفس أول ما تتفتح على الجمال والحب ، وفي هاته المدينة الجميلة الرابضة على ضفة النهر الخالد ، في المنصورة عروس النيل ، ولد على محمود طه بعد مولد هذا القرن بعام وبعض عام .

ولم تكد تتفتح عيناه على نور الحياة حتى وقعت على جمال الريف وبساطته ، وعلى رونق المدينة وزخرفها . فهناك ، على ضفاف النيل بالمنصورة ، يلتقي عنصران مختلفان كأشد ما يكون الاختلاف ، متباعدان كأعظم مايكون التباعد، عنصر المدينة الحضرى المعقد الذى أضفت عليه الحضارة الجديدة لونا بهيجا وكسته حلة قشيبة ، وعنصر الريف الساذج البسيط الذى اذا امتاز بشيء فانما يمتاز بالفطرة أو بشيء هو أقرب ما يكون الى الفطرة . ولم يكن اللقاء بين هذين العنصرين لقاء متكافئا في ذلك الوقت من الزمان ، فقد كان تيار المدينة يزحف على الريف وئيدا وئيدا ، ولم يكن من اليسير عليه أن يغير واقع القوم بين يوم وليلة ، أو أن يجرف أمامه كل القيم والعادات والتقاليد التي توارثتها الأجيال وظلت تحكم المجتمع وتحدد له طريقه في الحياة .

من أجل هذا كانت المنصورة يومها أقرب الى الريف منها الى المدينة ، وكانت نسماتها الرقراقة المنبعثة من الحقول تعبث بالصبي فتهز وجدانه كما تهز أغصان الأشجار وأعواد الأزهار ، وكانت الرائحة الزكية التى تؤرج الجو وتسرى مع الحياة فى الحقول تفتح فى نفسه نوافذ يطل منها على دنيا الجمال والحب ·

ولقد كانت المنصورة بحق تربة خصبة لانبات شاعر عظيم · وكان صاحبنا فنانا بطبعه ، فلم تلبث عواطفه أن تفجرت مبكرة ، ولم يلبث لسانه أن انطلق بالشعر ولما يبلغ السابعة عشرة من عمره · ولم يكن شعره فى الحقيقة الا لحنا يتجاوب مع هذه الموسيقى الحالمة التى تعزفها الطبيعة بكل ما فيها من أشجار وأطيار وجداول وغدران · ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الرسالة الفنية التى عاش لها على محمود طه هى رسالة الطبيعة فى المنصورة ، أو بتعبير أعم وأشمل ، هى رسالة الجمال فى كل صورة من صوره، وفى كل معنى من معانيه · ومن أجل هـذا لم يكن عجيبا أن نراه رقيقا فى حسه ، فنانا فى ذوقه ، كريما فى خلقه وطبعه ·

وعلى أرباض المنصـــورة قضى شـاعرنا فترة الصبا وبواكير الشباب ، وعاش تجربة القلق والحيرة التى يمر بها كل انسان فى مقتبل عمره وبواكير شبابه · ومن أجل هذا كان لا يرى الا منطويا على نفسه ، منسحبا من المجتمع

الذى يحيط به الى أحد المقاهى(١) التى تنتشر على ضفة النهر الخالد حيث يقضى طرفى نهاره حزينا صامتا شارد الفكر والبال ·

ولم يكن حزنه من ذلك النوع الذى يعتم حياة صاحبه ويجللها باليأس والقنوط ، وانما كان حزنا يصهر النفس ويصفيها ويمنحها أسباب الرقة والسمو · أما قلقه فكان نتيجة طبيعية لتلك الرغبة الملحة التى تساور النفس الطموح حين تريد أن تسبق الزمن وتشق أستار الغيب ولكن ظروف الحياة تقف عائقا يحول بينها وبين ما تريد ·

واذا كانت شجرة الحزن قد نبتت فى نفس صاحبنا منذ بواكير صباه ، فان صروف الزمان قد أمدتها بأسباب النماء وأتاحت لها أن تكبر وأن تضخم احساسه بالوحدة والغربة فى هذه الحياة · فقبل أن يبلغ التاسعة من عمره انتزعت منه يد المنون أبويه وخلفت له احساسا بالألم عميقا ، وشعورا بالوحدة حادا عنيفا · وما لبث أن أضيف حزن الى حزن ، وهم الى هم ، فقد كان الصبى من أبناء الطبقة الوسطى ـ والطبقة الوسطى فى ذلك الزمان كانت أقرب الى الفقر منها الى الغنى ، وأدنى الى الشعور بمرارة الحياة منها الى الاستمتاع بمباهجها ـ ومن أجل ذلك لم يكد ينتهى من دراسته الابتدائية حتى وجد نفسه مضطرا تحت

---

(١) قهوة « متيو » بشارع البحر ··

ضغط الظروف المادية – الى اختصار طريق الدراسه والالتحاق بمدرسة الفنون والصناعات راضيا بذلك أو مكرها عليه · فيقوى في نفسه الشعور بالحرمان ، وتتصارع فيها الطبيعة العلمية مع الميول والنوازع الفنية· أو بعبارة أخرى يصطدم طموحه الفني بضرورة السعي وراء لقمة العيش · ولطالما أمضته هذه الحقيقة المؤلمة ، ولطالما حزت في نفسه وقوت لديه الاحساس بأنه غريب في دنياه · غريب بالقلب والفكر والروح ·

وهكذا كان الحزن والقلق رفيقين مخلصين للشاعر في هذه المرحلة من مراحل حياته · واقرأ – ان شئت – حديثه عن نفسه في تلك الأيام لترى مبلغ ضيقه بنفسه وبالحياة من حوله حتى ليتمنى الخلاص · يقول :

« **يخيل الى أني من قوم آخرين ومن بلد آخر ، فأنا لا أزال أشتاق الى القريب المجهول وأحن الى الوطن النازح· ويشتد بي النزوع أحيانا فأتمنى لو أطير · وأتوهم حين يخفق قلبي انه طائر يريد أن ينهض وأن ضلوعي من حوله قفص يأبى أن ينفرج**»(١) ·

فهو يريد أن يطير ، ولكن أنى له ذلك ؟ وهو يريد أن ينطلق ، ولكن الى أين ؟

انه انسان محدود الطاقة مقيد بحدود الزمان والمكان· أما آماله وأمانيه فانها لا تعرف القيود والحدود وانما ترتفع عليها جميعا ·

(١) الرسالة ، عدد ٦ مارس سنة ١٩٥٠ ·

وهكذا كان شاعرنا دائم الاحساس بالوحدة والغربة. وهو احساس نابع مما يختلج في صدره من مرارة وألم . وكثيرا ما كان هذا الشعور يستبد به حتى لنراه يصرخ من أعماقه :

والأرض ضاق فضاؤها الرحب
وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب
وبقيت وحدك أنت والزمن(١)

فهذان البيتان على ايجازهما يصوران نفسا حانقة غاضبة قد ضاقت عليها أرض الله بما رحبت ، فهي تلتمس الرفيق فلا تجد إليه سبيلا ، وتبحث عن الحبيب فلا تدري له مكانا . ومن أجل هذا يعنف احساسها بالألم وهي تواجه الحياة وتتعرض لنوائب الأيام وحيدة مضيعة .

ومن هذا الواقع الذي عاشه الشاعر في سني حياته الأولى ، ومن واقع احساسه بالألم والعذاب والضيق والشرود ، بدأ الملاح التائه يتبين طريق الخلود ، ويعرف مواقع أقدامه من هذا الطريق !

---

(١) من قصيدة « قلبي » ــ الملاح التائه .

فى دنيا الجمال والحب

وتمضى الأيام ، ويتخرج على طه فى مدرسة الفنـون والصناعات ليدخل مدرسة الحياة ، ولينهض بدوره الفنى الى جانب واجبه الوظيفى الذى كثيرا ما ضاق به وبقيوده التى كانت تثقل كاهله وتكبل خطاه · وفى زحمة الحياة وغمـار المجتمع ، ننظر فنراه يحلق بروحه فى سـماوات الخيال ، ويسبح بفكره فى آفاق الجمال والحب ·

واذا كان الناس قد اعتادوا أن يطلقوا على الشعراء أبرز صفاتهم فيقولون عن حافظ ـ مثـلا ـ انه « شاعر النيل » ويصفون الشابى بأنه « شـاعر الألم » ، فكذلك نستطيع أن نقول ان على محمود طه كان « شـاعر الجمـال والحب » · فهو لم يكن يبصر غير الجمال ، ولم يكن ينشد غير الحب ، ولم يكن يرى لحياته معنى الا بقدر ما يصيب فيها من كأس الحب ، وبقدر ماينهل فيها من ينابيع الجمال·

ومن الطريف أنه لم يكن يرى فى الجـمال والحب رسالته وحده ، وانما كان يرى فيهما رسالة كل شاعر وكل فنان · فهو حين يحتفل مع الوجود بمولد شاعر نراه يخاطب هذا الوليد فى مهده قائلا :

ايها الشاعر اعتمد قيثارك
واعزف الآن منشـدا أشـعارك

واجعل الحب والجمال شعارك

وادع ربا دعا الوجـــود وبارك

فزها وازدهى بميلاد شاعر (١)

وتلك نغمة تتردد فى شعره كثيرا ، ونجدها حتى فى رثائه لشوقى وحافظ ·

والحق أن ملاحنا التـائه كان مؤمنا برسـالته هذه الايمان كله ، وكان متفانيا فيها ، حريصا على أدائها على أحسن وجه وأكمله حتى أصبح حديث الحب فى شعره قويا صارخا ، وأصبحنا لا نسمع فى صوت المجداف الا قبلات المحبين وخفقات قلوبهم ·

ولم تكن المـرأة هى المنبع الوحيـد لكل ما فى دنيا الشاعر من الجمال والحب ، اذ لم يكن جمالها وحده هو الذى يأسره ، ولم يكن حبها وحده هو الذى يشغل قلبه ، وانما امتد الجمال والحب فى نظره الى الطبيعة بأسرها والى الكون كله · يقول فى قصيدة « الفن الجميل » : (٢)

وأنا الشاعر الذى افتتن بالحسن وأذكت يد الحياة افتتانه

معهـدى هـذه المروج وأستاذى ربيع الطبيعة الفينانه

فهو مغرم بالطبيعة مفتون بهـا ، يحبهـا حتى ليكاد يعبدها · وتنعكس صورة هـذا الحب فى شـعره تغنيا بضفاف المنصـورة وشواطىء بورسعيد ودمياط ، وحنينا

(١) قصيدة «ميلاد شاعر » ـ الملاح التائه .

(٢) الملاح التائه .

دائما الى الريف ومروجه الخضراء التى ألهمته الفن والشعر منذ بواكير الصبا والشباب .

انى لأذكر حقلنا ولياليا
أزهرن فى ظـل لديه وريـف
ومراحنا بقرى الشمال وكوخنا
تحت العرائش فى ظلال اللوف
نلقى الخمائل بالخمائل حولنـا
متعانقـات سـابغات الفوف (١)

ولطالما وقف الشاعر أمام البـحر يسـائله ويناجيه ويبثه خواطره وأشجانه ، كهذا الذى نراه حينما وقف ذات مساء عاصف على برزخ الرمال الممتد بين شـاطىء البحر الأبيض وبحيرة المنزلة ، وعلى مشـارف أكواخ « أشتوم الجميل » مطرق الرأس شـارد الفـكر سـابحا فى عوالم الذكريات منشدا فى حزن :

ياطول مانغمت للصـخر أناتى
وشد مارجعت للموج آهاتى (٢)

ولم تكن طبيعـة بلاده وحـدها هى التى تبـهره وتستهويه ، وانما كانت الطبيعة السـاحرة أينما وجدت تجذب شـاعرنا اليها جذبا شـديدا وتستخرج منه أعذب ألحانه . ومن حسن حظ أدبنا العربى بعامة، وشعر الطبيعة

---

(١) قصيدة « فى القرية » ـ الملاح التائه .
(٢) قصيدة « الأمسـية الحزينة » ـ الملاح التائه .

بخاصة ، أن أتيح للملاح التـائه أن يجوب الآفاق ، وأن يشهد آيات الله فى جمال الطبيعة ومفاتنها ، وأن يستوحى هذا الجمال للتعبير عن احساسه ، فقد كان يرى أن الشاعر انما يستوحى الليل والكواكب والسحب ٠

يسأل الليل والكواكب والسحب والديم(١)

والشاعر هو الذى يحيل هذه الايحـــاءات فى نفسه نغـــما عذبا ، ويستخرجها على لسانه شـــعرا خالدا ولحنا يتغنى به الزمان ٠

وهكذا يحدثنا على محمود طه عن مناظر الطبيعة التى بهرته فى أوربا والتى ارتسمت فى ذهنه وخياله، فهو يحدثنا عن «بحيرة كومو» و «نهر الرين» و «كرنفـال فينيسيا» ، وهو يترجم لنا «بحيرة» لامرتين و «قبرة» شيلى و « بيت الراعى» لدى فينى ، وغـــير ذلك من القصـــائد التى عرف أصحابها بعشق الطبيعة ٠ وفى تقديمه للجزء الذى ترجمه من قصيدة « بيت الراعى » نراه يصارحنا بأنه اختار هذا الجزء بالذات لأن الشاعر « يتكلم فيه بدقة ورقة وصراحة وعظمة عن القلب والروح والجسد ، وشقاء النفس الشاعرة بهذا العالم الجارح ومدنيته الجارفة القاسية ، وهو فى هذه الأبيات يعبر عن حبه الأسمى للطبيعة ، ويجلو من براءتها ونقائها وحنانها صورا فنانة أخاذة » (٢)

---

(١) زهر وخمر

(٢) ارواح شاردة ٠

وهو لا ينقل لنا صورة من صور الطبيعة الا بعد أن يستقصيها ويلم بكل تفاصيلها فى دقة وبراعة . وحسبنا دليلا على ذلك قصيدته عن «شواطىء مصر»(١) التى يستهلها **بقوله :**

حياك ارضــا وازدهاك ســماء
بحر شدا صـــخرا وصفق ماء
يحبو شعابك فى الضحى قبلاته
ويرف انفاسا بهن مساء
متجدد الصبوات أودع حبه
شتى الأشعة فيك والأنداء
ولع بتخطيط الرمال كأنه
عرافة تســـتطلع الأنبـاء
ومصور لبق الخيال يصوغ من
فن الجمال السحر والاغراء
نسق الشــواطىء زينة وادقها
صورا بريا صفحتيه تراءى
يجلو بريشته السماء وانما
زادت بريشته السماء جلاء

وبعد هذا المطلع الرائع نراه يخـاطب تلك الشواطىء **قائلا :**

---

(١) ليالى الملاح التائه .

كم ظل يضرب في صخورك موجه
ممـــا أجن محبـــة ووفاء

عذرا اذا عيت بمنطقه اللغى
فهو العيى المفحم الفصحاء

فخذى الحـديث عليه واستمعى له
كم من جمـاد حدث الأحياء

وسليه كيف طوى الليـالى ساهدا
وبلا الأحبة فيك والأعداء

فالشاعر فى هذه الأبيات كلها يتناول فكرة واحدة ، فكرة الأمواج تداعب رمال الشـــاطىء ، ولكنه لا يعرضها علينا عرضا سطحيا سريعا ، وانما هو يستقصيها ويحللها ويستوقفنا عنـد كل جزئية من جزئياتها حتى لنكاد نرى الأمواج وهى تداعب الرمال وتعانقها ، وحتى لنكاد نسمع تلك الأشواق التى تبثها الأمواج رمال الشاطىء بعد الرحلة الطويلة . وما نحسب أبرع الرسامين بقادر على أن يعطينا صورة أدق ولا أجمل من هذه الصورة المتحركة التى نراها رأى العين فى قول الشاعر :

ولع بتخطيط الرمال كأنه
عرافة تســـتطلع الأنبـاء

ومصور لبق الخيال يصوغ من
فن الجـمال الســـحر والاغراء

نسق الشـــواطىء زينة وادقها
صورا بريا صفحتيه تراءى

وهكذا نرى الشاعر فى تلك القصيدة ـ كما هو فى كثير غيرها ـ لسان الطبيعة وترجمانها · ماذا أقول ؟ انه ليكاد يذوب فيها حتى يصبح صوتا من أصواتها ولحنا من ألحانها · واقرأ ـ ان شئت ـ قصيدة «العشاق الثلاثة»(١) الذين تصورهم الشاعر وقد اشتركوا فى عشق ضوء القمر، وراح ينقل لنا الحوار الطريف الذى دار بين كل واحد منهم وبين معشـــوقه ، لترى مبلغ تقديس الشاعر لهذا القمر المعشوق ، بل لكل ما فى السماء والارض من مظاهر الفتنة والجمال ·

ولقد ملكت الطبيعة على شاعرنا أمره وسيطرت عليه فى كل أشـــعاره · وكأنى به لم يقنع بكل ما أنشد من القصائد فى وصف مظاهر جمالها وروعتها ، فراح يستهل قصيدة كقصيدة « الموسيقية العمياء » بمقـدمة فى وصف الطبيعة مخالفا فى ذلك سنة القدماء الذين درجوا على أن يبدءوا قصائدهم بالوقوف على الأطلال وبكاء الدمن والديار · يخرج شاعرنا على هـــذا التقليد العتيق الذى سارت عليه الأجيال المتعاقبة جيلا بعد جيل ، ويبدأ قصيدته تلك بقوله:

اذا ما طـــاف بالأرض
شـــعاع الـكوكب الفضى

---

(١) ليالى الملاح التائه .

اذا ما انت الريـــح
وجاش البرق بالومض
اذا ما فتـــح الفـــجر
عيـــون النرجس الغض
بكيت لزهرة تبــكى
بلمـــع غـــير مرفض (١)

فهو هنا مشغول بالطبيعة مفتون بها فتونا شديدا · لا يبصر الأشياء من حوله الا في ضوئها ، ولا ينفك عنه سـحرها حتى فى مواقف اللوعة والأسى · وفى ذلك أبلغ دليل على أنه شـاعر الطبيعة ولسانها النـاطق ونشيدها الباقى على الأيام ·

---

(١) ليالى الملاح التائه .

رحلة التيه

ومن شاطىء المنصورة ، ركب الملاح زورقه الهائم ، وبدأ رحلته الرهيبــة التى أنفق فيهـــا عمره كله ، والتى سكبها فى دواوينه شعرا رائعـا تلفه غمائم التيه وتنبعث من بين سطوره رائحة الضياع ٠

وفى أثناء تلك الرحلة ، ننظر فنرى صاحبنا وقد جمع بين المتناقضات فى شعره وفى تفــكيره وفى نمط سلوكه وأصبح شاعر اللذة والألم والمرح والعذاب جميعا ٠ ولعلنا لا نزال نذكر أن نفسه كانت تنطوى على شىء غير قليل من مرارة الحياة التى تجرع كئوسها منذ نعومة أظفاره ، والتى ظلت تلاحقه وتكبر فى نفسه مع الأيام ٠ ولم تلبث البقية الباقية من هذه النفس أن تحطمت على صخرة الحياة حين عاش الشاعر تجربة حب فاشل عصف به وأطار لبه وأحرق قلبه بلظاه ٠ وفى قصيدة « انتظار » (١) يحدثنا الشاعر عن النهاية الأليمة لهذا الحب البائس اليائس فيقول مخاطبا صاحبته :

ولقد اتت بعد الليالى وانقضت
وكأننـــا فى الدهر لم نتزاور

(١) الملاح التائه ٠

بدلت من عطــف لديك ورقة
بحنين مهجور وقســـوة هاجر
وكأنني ماكنت الفك فى الصبا
يوما ، ولاكنت الحياة مشاطرى
ونسيت أنت ومانسيت وانني
لأعيش بالذكرى لعلك ذاكرى

فصاحبته هي التي حكمت عليه بالهجران ، وهي التي نسيت ما كان بينها وبينه من ود ومحبة ٠ وهو يذكر ذلك في مرارة عميقة لا يســـتطيع معها الا أن يلقى بنفسه فى أحضان الذكريات على شعاع خافت من الأمل فى أن تعود اليه صاحبته فى يوم من الأيام ٠

ومرة أخرى نسمع خفقـات القلب الجريح حين يعود ذات يوم الى أماكن لقائه بصـــاحبته فتستثير هذه الأماكن كوامن نفسه ، وتعيد اليه أطيافا من الذكريات نقرأها فى قصيدة « الشاطىء المهجور » (١) حيث يقول :

صخرة كانت الملاذ لقلـ
ـبين حبيبين فى الشباب النضير
جمعتنا بهـــا الحوادث فى ظل
هوى طـاهر وعيش قرير

---

(١) الملاح التائه .

كم وقفنا العشى نرقب منهـــا

مغرب الشمس وانبثاق البدور

وجلسنا في ظلهـا نتمـلى

صفحة الماء فى الضحى والبكور

ويمضى الشاعر فى ذكر تلك الأمسيات الجميلة التى كان يلقى فيها صاحبته على الشاطىء ، حيث النسيم العليل، وحيث الظلام المطبق الا من ضوء القمر والنـجوم · هنالك كان الشاعر يجاذب صاحبته أطراف الحديث بينما تتردد فى مسامعهما أصداء غنـاء رجال البحر تأتيهما من بعيد ، الى أن يقول :

ياصخور الوادى يضج عليها الـ

ـبحر فى جهشة المحب الغيور

يارمال الكثبان تنقش فيها الريـ

ـح أسطورة الحيـاة الغرور

ياخفـاف الأمواج تحـلم بالاينـا

س من كوكب المسـاء الصغير

يانسيم الشمال يعبث بالرغـ

ـو ويهفو على الرشاش النثير

أنت يا من شهدت فجر غرامى

ووعيت الغداة سر الدهور

أين أخفيت أمســـياتي اللواتي
نزعتها منى يد المقدور ؟
امحـــاها الزمان ؟ أم حجبتها
من عواديه ماحيـــات البدور ؟
بدلتنى الأقدار منها بليل
مدلهم الآفاق جهم الستور
غشى العــين ظله وتمشت
فى دمى منه رعشة المقـــرور

فالشاعر فى هـــذه القصيدة يسأل رمال الشاطىء وأمواج البحر وصخوره عن ذكريات حبه الضائع ، ويبثها آلامه الحادة التى خلفها له ذلك الحب الفاشل ، والتى تبلغ ذروتها فى الأبيات الخمسة الأخيرة ٠

ولطـــالما وقف صاحبنا على أطلال المـــاضى يستوحى الذكريات ويستثير كوامن الشجن ٠ فها هو ذا يجلس ذات يوم على الشـــاطىء الذى شهد قصة حبه ، فينطلق لسانه بقصيدة جميلة يقول فيها :

لى وراء الأمواج يا بحـــر قلب
نازح الدار ماله من مآب
نزعته منى الليـــالى فامسى
وهو ملقى فى وحشة واغتراب(١)

وفى موقف آخر من مواقف الحيرة والضياع نستمع الى هذا الأنين يصدر عن قلب أذابه الأسى وأضناه الألم :

---

(١) قصيدة «الى البحر» ـ الملاح التائه ٠

انا قيثارة جفتها الليـــالى
فى زوايا النســـيان والغفلات
وارتث اوتارها فهى تبـلى
من شجاها حبيسة النغمات(١)

نعم ! لقد أصبح الشاعر قيثـارا حزينا يردد ألحان الألم والوحشة والعذاب · وكأنمـا كان الحزن هو الوتر المشدود فى هذا القيثار ، وكأنما تمرنت أصـابع الشاعر على هـذا الوتر دون غـيره وألفته دون سواه ، فاذا هى تستخرج منه اللحن القوى الصارخ · واقرأ ـ ان شئت ـ قصيدة « غرفة الشاعر » التى نشرها فى ديوانه الأول (٢) لترى الى أى حد كان على محمود طه شاعر القلق والحيرة والضياع · استمع اليه يخاطب نفسه قائلا :

ايها الشاعر الكئيب مضى الليل
وما زلت غارقا فى شـــجونك
مسلما رأسك الحزين الى الفكـ
ـر وللســـهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع واخرى
فى ارتعـاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر انفا
سك يطغى على ضـعيف انينك

---

(١) قصيدة «صخرة الملتقى» ـ الملاح التائه ·

(٢) الملاح التائه ·

فهو يغرق فى شجونه وآلامه وأفكاره ، قد خاصم النوم جفنيه ، وتأججت فى أعماقه نيران يرتفع لهيبها حتى لتكاد أنفاسه تشتعل ٠

ولعلنا نتساءل : ولم كل هذا ؟ أكانت تجربة الحب الفاشل التى مر بها الشاعر من العنف بحيث ينهار أمامها وتستحيل حياته من بعدها جحيما لا يطاق ؟

أكبر الظن أن الحب الذى يحدثنا عنه «الملاح التائه» هو حبه الأول ٠ فنحن نرى فيه اخلاصا وصدقا قلما نظفر بهما فى الدواوين اللاحقة ٠ ومن ثم كان اخفاقه فيه صدمة قاسية هزت كيانه كله وصبغت نفسه وشعره بلون الحزن والسواد ٠ فنحن نراه فى هذه الفترة من حياته مكتئبا يائسا يفرغ كآبته ويأسه فى شعر مظلم حزين ٠ واذا كان من طبيعة الأيام أنها تصفى التجربة العاطفية التى يمر بها الانسان وأن تخمد النار المتأججة فى أعماقه ، فانها مع ذلك لا تمحو ما يتخلف عنها من رواسب الألم ٠ وهى رواسب تثور بصاحبها من حين الى حين فتنغص عليه عيشه وتكدر صفو حياته ٠

ولو أن شاعرنا اكتفى بهمومه وأحزانه يسكبها فى أشعاره ويعزفها على قيثاره لهان الأمر ٠ ولكن الاحساس بالألم قد طغى عليه وأرهقه من أمره عسرا شديدا حتى لم يعد يكفيه أن يحمل آلامه وحدها ، فمضى يحمل نفسه فوق ما تحتمل ، ويلقى على كاهلها آلام البشر جميعا ٠

وها هو ذا ينثر بين أيدينا خفقات قلبه وفيض مشاعره تجاه الانسانية كلها فيقول(١) :

انا الذى قدست احـزانه
الشاعر الشــاكى شقاء البشر
فجرت بالرحمة الحانه
فاملأ بهـا يارب قلب القـدر

***

ما الشـاعر الفنـان فى كونه
الا يد الرحمة من ربه
معزى العـالم فى حزنه
وحامل الآلام عن قلبـه

فهو يقدس آلام الانسـان ، ويرفـع الى عرش الله شكايات البشر وأتراح الانسانية جمعاء ٠

ولكن الآلام تتكاثر على الملاح وتأخذه من كل صـوب حتى لتصيبه بمـا يمكن أن نسميه «ظلام الروح» فاذا به يطوى شراعه ويحمل مجدافه ويبسط جناحيه للريح صاعدا الى ربه يطرق أبواب سمائه فى حيرة شديدة من أمر الحياة وما بعد الحياة ٠ وتبلغ هذه الحـيرة أقصـاها حين نراه يجادل ربه فى مسألة الثواب والعقاب ، ويدافع عن الانسان الضال بأنه ليس مجرما ولا آثما وانما هو هارب من الحياة يحاول أن ينسى همومها ومتاعبها ، وكذلك حين يناجى ربه فى شك من مصير القافلة الانسانية وفى حيرة من أمرها ٠

(١) فى قصيدة «الله والشاعر» ـ الملاح التائه .

وهو شك يخوض فيه الشاعر حتى يرتطم بصخرة الانكار فيخاطب الأرض فى سخرية :

الام تطوين عبـاب السنين
شوقا الى فردوسك الضـــائع
غــررت يا ارض بمـــا تحلمين
فاستيقظى من حلمك الخــادع

ولكنه في غمرة هذه التيارات النفسية المتضاربة ، ووسط تلك العواصف والأعاصير لا يفقد صوابه وايمانه . وانما هو يحاول أن يحتفظ بهما اذ يقول :

ما انا بالزارى ولا الحاقد
لكنني الشاكى شقاء البشر
افنيت عمرى فى الأسى الخـالد
فجئت استوحيك لطف القـدر

وهو آخر الأمر ضارع مبتهل الى الله ، لا يشك أبدا فى رحمته الواسعة :

يارحمـــة الله اهبطى وانظرى
ما حصد الموت ودق العدم

ايســـتحق الناس هذا العقاب
ام حانت الســـاعة من نقمتك
ما احتملوا يارب هـذا العذاب
الا رجاء الغـــوث من رحمتـك

هو حائر اذن . لا يدرى أين يســـتقر ، ولا الى أى

وجهة تمضى به قدماه · خطوة يأس تقـذف به الى وراء ، وخطوة أمل تدفع به الى أمام · « رجل لاهو بالشاك المطمئن الى الشك ، ولا هو بالمستيقن المطمئن الى اليقين ، ولا هو بالمنكر المستريح الى الانكار ، وانما هو رجل مضطرب حقا· مضطرب أشد الاضطراب · يؤمن بالقضاء والقدر ، ثم يثور بالقضاء والقدر · يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها · يشكو ثم يستسلم ، ويستسلم ثم يشكو · رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر(١) » ·

وهذه الحيرة التى تطالعنا فى أوضـــح صـــورها فى «الملاح التائه» ، ظلت تلاحق الشاعر فىحياته أعواما طوالا· فنراه يهدى ديوانه الثانى(٢) «الى الذين أطالوا التأمل فى أسرار الكون وأرهقهم التيه فى مجاهل الحيـــاة » و « الى العـــائدين بأنس أحلامهم الى وحشة مضاجعهم بين اللهفة والحنين » · وليس بخاف أن هذه الروح هى امتداد لقصيدة « الله والشاعر » التى نشرها فى ديوانه الأول ، وأن هذا الاهداء يكشف لنا عن نفس شاردة أضنتها الحيرة وأرهقها العذاب ·

ولا نكاد نقرأ للشـــاعر فى أى من دواوينه الأربعة الأولى حتى نجـد تلك الحيرة المتصلة تطل برأسها من بين السطور · ماذا أقول ؟ ان البصر لا يكاد يقع على واحد من هذه الدواوين حتى تشده تلك الحيرة الواضحة فى عنوانه

(١) طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٣ .

(٢) ليالى الملاح التائه .

قبل المضى فى قراءة أشعاره · فالملاح تائه ، والأرواح تارة شاردة ، وتارة أخرى هائمة مع الأشباح !!

ولقد أمعن الزورق فى هيامه ، ومضى لا يستقر بصاحبه على بر يطمئن اليه ويعرف مكان قدمه منه · مضى حائرا بين المتناقضات ، ابتسامات وعبرات · ضحكات وأنات · أمل وألم · تفاؤل وتشاؤم · سخط ورضا ··· ولو قد عرف الملاح طريقه فى الحياة ، ولو قد حدد وجهته منذ استقل الزورق لعاش سعيدا فى دنياه · ولكنه كان تائها ، وكان زورقه هائما على كف الموج · وما أصدقه فى التعبير عن هذا التيه حين يقول :

ادرك التـــائه فى بحر الهـوى
قبـــل ان يقتله المـوج صراعا
وارع فى الدنيـا طريدا شاردا
عنه ضاقت رقعة الأرض اتساعا
ضـــل فى الليـــل سراه ومضى
لا يرى فى أفق منه شـــعاعا
يجتـوى اللافح من حرقته
وعذاب يشـــعل الروح التياعا
والأسى الخـــالد من ماض عفا
والهوى الثـائر من قلب تداعى (١)

---

(١) الملاح التائه .

هو تائه اذن . تتقاذفه أمواج الحب والهـــوى ويكاد يبتلعه اليم . قد أظلمت فى وجهه الدنيا ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فهو يكتوى بما يتأجج فى أحشائه من نار الأسى التى تذيب جســـمه حسرة وتخلف قلبه حطاما فانيا .

مع الأفعى الخالدة

وحديث الأفعى الخالدة هو امتداد للحديث عن رحلة التيه التى عرضنا لها آنفا . فالذى لا شـك فيه أن فشل الشاعر فى حبه العذرى قد أحدث فى نفسه فراغا هائلا، ودفعه الى أن يكفر بقيم الحـق والخـير والجمال ويصبح انسانا بوهيميا لا هدف له الا اغتنام الملذات . ولقـد أفسحت له جولاته التى قام بهـا فى ربوع أوربا هذا الطريق ، اذ أتاحت له أن يرى عوالم أخرى وأن يعيش فى مجتمعات تختلف فى ثقافتها وفى أخلاقها عن ثقافة المجتمع المصرى وأخلاقه ، وتبيح من علاقة الرجل بالمرأة مالا تبيحه مجتمعاتنا الشرقية التى تحكمها الأديان والتقاليد . ولم يتردد الشاعر فى أن يقتحم هذه الحياة الجديدة ويستغلها كأقصى ما يمكن أن يكون الاستغلال ، فمضى يروى ظمأه من تلك المناهل الاباحية الفياضة باللذة والمتعة فى شتى صورها وأشكالها . وبدأنا نرى زورق الملاح التائه فى لياليه وفيما تلا ذلك من دواوين ينأى بصاحبه عن جـو الحرمان القاتم الذى كان يسبح فيه فى صدر حياته . وبعد أن كنا نسمع خفقات القلب أصبحنا نسمع صيحات الجسد ، وبعد أن كان الشـاعر يحدثنا عن حبه العذرى فى أسى عميق ، أصبحنا نجد عنده أحاديث حب آثم لا يقيم للقيم

الخلقية وزنا ولا اعتبارا · ولقد ظهرت هذه النغمة الجديدة واضحة فى «ليالى الملاح» حيث نقرأ - مثلا قصيدة بعنوان « هى » يهديها الشاعر « الى التى علمته كيف يحب وكيف يكره » · ولا أحد يدرى من هى هذه التى علمته الحب والكراهية ، ولكننا نلمس بوضوح أنها كانت على علاقة بصاحبنا لا يرضى عنها الخلق والدين ، فهو يسترجع فى هذه القصيدة صور لقاء له معها فيسائل نفسه قائلا :

اذا فتح الباب تحت الظلام
فكيف ارتماؤك فى صدرها ؟
وكيف طوى خصرها ساعداك
ومرت يداك على شعرها ؟
وما هذه ؟ رعشة فى يديك
أم الكأس ترجف من ذكرها ؟
وما فى جبينك يا ابن الخيال ؟
سمات تحدث عن غدرها !

ويصرخ من أعماقه :

لقد دنس الجسد الآدمى
حياة حرصت على طهرها
بكى الفن فيك على شاعر
تسائله الروح عن ثارها
نزلت بها وهدة كم خبا
شعاع وغيب فى قبرها

فهو يتسلل اليها فى الظلام حتى اذا فتحت له بابها ، ارتمى فى أحضانهـا ومضى السـاعدان يلفان خصرها . وسارعت اليدان تمسحان شعرها · ويبدو أن الشـاعر كانت له معها قصة طويلة وكانت له فيها آمال كبار ، وأنها غدرت به وبآماله جميعا ، فعاد الى نفسه ليجد روحه تتعذب بعد أن هوى بها الى قرار سحيق ، وليقاسى مرارة الندم الذى أخذ يستبد به بعد أن دنس حيـاته وقد كان على طهرها حريصا ·

وفى نفس الديوان نقرأ هذه الأبيات من قصيدته فى « بحيرة كومو » :

فيـم والنبـع دافق
يشتكى الظامىء الصدر ؟
ولمن هـذه العيـون
تغمرن بالحـور ؟
بتن يلعبـن بالنهـى
لعـب الطفـل بالأكر
هن أصـفى من الشـعا
ع واخفى من القـدر
ولمن توشـك الثدى
وثبة الطير فى السـحر
كـل الـف لالفـه
هم بالصدر وابتدر

عض فى الثوب واشتكى
وطـاة الخــز والوبر
سمة الطــائر المعـذ
ب فى قيـــده نقــر
ولمـن رفت المبــا
سم واسترسل الشعر؟
ثمر ناضـــج الجنى
كيف لانقطف الثمر ؟!

فبعد ان وصف الشاعر ســحر العيون وجمال النهدى والثغور واسترسال الشعور ، لخص ذلك كله فى الشــطر الأول من البيت الأخير حين قال «ثمر ناضج الجنى» وأردفه بهذا الاستفهام الذى يكشف لنا عن حقيقة نفسه وطبيعـة مزاجه حيث يقول : « كيف لا نقطف الثمر » ؟ .

هو مقتنع اذن بأن الله لم يهب المراة جمالها الا ليكون متاعا للرجل . وهو مقتنع بأن الانسان ينبغى أن يشبع رغبته ما وجد الى اشباعها سبيلا :

فيم والنبــع دافق
يشتكى الظامىء الصدر ؟

انه لا يفكر ولا يتردد وانما يندفع وراء اللذة اندفاعا جنونيا . واى شىء أروع فى تصوير هذا الاندفاع من هذين البيتين اللذين يحدثنا فيهمـا عن علاقته براقصـة حسناء عرفها فى أوربا ثم التقى بها فى القــاهرة ذات مساء .

يقول :

ارى جنـة وارانى بهـــا
اهيم بارجائهـــا حـائرا
ملأت بتفاحهـــا راحتى
وبت لكرمتهـــا عاصرا (١)

أبعد هذا نريد اعترافا من الشاعر ؟ أنطمع فى أكثر من هذه صراحة ؟

لقد انفلت عيار الشاعر فانطلق لا يلوى على شيء . انطلق يحطم فى طريقه كل قيم الأخلاق التى عرفها ، ويطا بقدميه كل ذكريات الألم والعذاب والطهر والعفاف جميعا.

وليس غريبا بعد ذلك أن نرى هذا التيار الجديد الذى بدأ يسرى فى دواوين الشاعر كلها يزداد مع الأيام قـوة وعنفا حتى لنقرأ له فى « الشوق العائد » قصيدة « الغرام الذبيح » التى يستهلها بقوله :

كم ليلة حمراء خلت ظلامهـا
يد مارد سلت خضيب حسام
وكأن كل سـحابة فى افقها
شبح الخطيئة فوق عرض دامى
وكأن انجمهـــا نوافذ حانة
شرب الدخان بها بريق الجام

---

(١) من قصيدة « الى راقصة » ـ ليالى الملاح التائه .

وكان أنوار المدينة تحتهـــا
سرج الغواية فى طريق حرام

فالليلة حمراء ، والعرض دام ، والطريق حـرام ، والسحابة كأنها شبح الخطيئـــة ، والأنوار كأنهـــا سرج الغواية· تعبيرات كلها تهيىء السامع والقارىء لجو القصيدة الملبد بالاثم والعار · وما هى الا لحظات حتى ينتقل بنـــا الشاعر الى بيت القصيد فيقول :

الفيتنى جسدا تسارق روحه
قبل عواصـف ضرجت بآثام
اجتاحها واضج من لذعاتها
فكانهـا بدمى نقيع ســـمام
وعلى يدى مسمورة مخمورة
التـذ كالمقرور حـــر ضرام

فالجسد تلهبه القبل اللاذعة الآثمة ، ودماء الشـــاعر تغلى ، ومع ذلك فهو يرتمى بين يدى هذه المخمورة ويلتذ من لهيب جسدها وقد خارت قواه وتحطمت قيمه ومبادئه جميعا ·

وهكذا كانت الأعوام الستة التى فصـــلت بين الملاح التائه ولياليه فاصلا بين حياتين عاشهما الشاعر ، وكانت فترة تحول خطير فى نظرته للمرأة ، بل فى نظرته للحياة كلها · فبعد أن كان يرى المرأة فى « الملاح التائه » ملاكا طاهرا

يعيش فى أعلى عليين ، أصبح يراها فى دواوينه اللاحقة أفعى خالدة وشيطانا آثما يعيش فى أسفل سافلين . وبعد أن كان يطالب الشعراء فى «الملاح» (١) بأن يملئوا الأرض فنا وليس فتونا ، وبالا يثيروا فى الأرض هوى ولا مجونا

املأوها فنا   وليس فتونا

لا تثيروا بها الهوى والمجونا

أمسى فى « لياليه » وقد نكص على عقبيه واغرق فى الهوى والمجون حيث يقول :

ولو استطعت جعلت مسبحتى

غُر النهود، وجل فى السبح(٢)

وتبلغ تلك النظرة ذروتها فى « الشوق العائد » حيث نقرأ فيه « صفحات من حب » و « امرأة وشيطان » و « من وحى الجسد » ، وكلها قصائد تدل على أن الشاعر الذى بدأ حياته محبا للمرأة انتهى — بكل اسف — آثما معها .

---

(١) قصيدة «ميلاد شاعر»

(٢) قصيدة «تاييس الجديدة» .

في العاصفة

وهكذا قضى الملاح الشطر الأول من حياته متقلبا في أحضان الطبيعة ، سابحا في لجج الهوى والغرام ، شاردا في متاهات الشك والوهم والحيرة والضلال ٠ ولكن الحرب العالمية الثانية لا تلبث أن تعصف بالعالم وهو في برلين فيعود مسرعا الى وطنه ، يكاد البرق يخطف بصره ، ويكاد الرعد يصم مسمعه٠ يعود الى وطنه ليأوى بزورقه الى مكان أمين حيث يطوى شراعه ويكتم أنفاسه ويخفض من صوته ٠ وتمضى خمسة أعوام تطغى فيها أصوات قصف المدافع ودوى القنابل على أهازيج الجمال وأناشيد الحب ٠ وبعد هـذه الأعوام يرتفع صوت الملاح من جديد ، ولكنه ليس الصوت الذى اعتدنا سماعه وانما هو صوت جديد ، صوت الندم والحسرة على ما فات ٠

عبرت بى الخمس فى صمت وحزن
اى خمس بعدها تمتد ســـنى ؟ (١)

فالشطر الثانى من هذا البيت لايخلو من مرارةعميقة فى نفس قائلة ، وألم حاد على هذه السنوات الخمس التى لا يسهل تعويضها لأن عمر الانسان أقصر من أن يعد بالخمس سنوات !!

(١) من قصيدة « بين الحب والحرب » ـ الشوق العائد ٠

على أنه ينبغي ألا نظن أن الشاعر قد صمت حقا ، فقد كانت فترة الحرب هذه من أخصب الفترات في حياته انتاجا ، ولكنه ـ كما عرفناه من قبل ـ لم يكن يعيش الا لنفسه وهواه ، ولم يكن يسيرا ، بل لم يكن ممكنا أن يستمر في هذا الاتجاه بين ويلات الحرب وفجائعها . وهل يمكن أن يرد الشاعر ينابيع الجمال والحب في وقت شوه فيه الجمال وذهلت فيه النفوس عن الحب ؟ وهل يتصور أن يغمض الشاعر عينيه عن نيران الحرب وألوان الخراب والدمار ليفتحهما على كئوس الخمر وتثني الراقصات ؟

لا ، لم يكن يمكن هذا ولا ذاك . ولم يكن بد من أن يصبح شعره في تلك الفترة التي وصفها بأنها فترة صمت وحزن بمثابة رجع الصدى لأيام الحب واللهو والخمر والمجون . ومن أجل هذا ننظر في دواوينه الثلاثة التي صدرت أثناء الحرب في الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ فنرى أولها (١) دراسات وتراجم وذكريات ، وثانيها (٢) عرضا لمشكلة الجنس والفن ، وثالثها (٣) قصة مصرية قديمة أتمها الشاعر وصبها في قوالبه اللفظية . ولو بحثنا عن علي محمود طه في ثلاثتها لوجدناه متخفيا وراء فرلين وبودلير في الأرواح الشاردة ، ووراء الشاعر الذي آذنته السماء بالبعث في

---

(١) ارواح شاردة .

(٢) ارواح واشباح .

(٣) اغنية الرياح الاربع .

« أرواح وأشباح » ، ثم وراء الشاعر المصرى « باتوزيس » فى «اغنيه الرياح» • ولئن كان قد كشف عن نفسه النقاب حينما بدأ يحدثنا فى « أرواحه الشاردة » عن ذكريات له فى أوربا ، الا أنه لم يلبث أن اختفى وراء الغمـــام فى عالم « الأرواح والأشباح » •

فشاعرنا وان كان قد عاش هذه الأعوام الخمسة حزينا مكتئبا ، الا أنه لم يقضها صامتا معقود اللسان • وأكبر ظنى أنه يعنى بالصمت والحزن ، ذلك الصمت الذى خيم على العالم طوال فترة الحرب ، وهذا الحزن كان يملك على الناس قلوبهم ويسد عليهم جميع المنافذ فلا يستطيعون منه فكاكا ولا خلاصا • وكيف السبيل الى الخلاص من الحزن والموت يتربص بهم فى كل مكان ، والفجائع تهبط عليهم من السماء وتخرج لهم من جوف الأرض ؟!

أجل ! لقد كانت خمسة أعوام عاشتها الانسانية فى صمت وحزن • وكان طبيعيا أن يأخذ الشاعر نصيبه من الحزن لأنه انسان يعيش فى عالم اللحم والدم، ويتعرض لما يتعرض له سائر الناس من الأهوال والخطوب • ولكن هل كان يمكن أن يشارك الناس صمتهم ؟ • كلا ! فشأن الشعراء دائما أن تصقل الأحداث العظام شاعريتهم ، وكلما ازداد حظ الشاعر من هذه الأحداث ، كلما رقت نفسه وصفت ، وكلما صقلت شاعريته وسمت •

وليس ثمة حدث في حياة الشاعر أهول ولا أخطر من شبوب حرب عالمية فيها تسفك الدماء وتحصد الانفس وتزهق الارواح · ولقد عاصر علي محمود طه في حياته حربين عالميتين كانت الأولى في صباه والثانية في شبابه · ولقد شغلت هذه الحرب الأخيرة خمس سنوات من عمره هي تلك التي وصفها بالصمت والحزن · ومن ثم لم يكن عجيبا أن نراه يضيق بالأرض التي لا تنبت الا الشرور والآثام ، ويفزع الى السماء يلتمس فيها ملجأ يأوى اليه ويعيش فيه بمنأى عن كل اثم وشر ، في رحاب عالم الطهر والخير والعفاف · وليس ديوانه «أرواح وأشباح» الذى صدر ابان الحرب الا تعبيرا عن هذه الفكرة ، وترجمة شعرية لذلك الخاطر · « فأرواح وأشباح » قصة شاعر آذنته السماء بالبعث الى عالم الأرض ، فاذا هو خائف وجل غاضب مشفق من أن تتلاعب به الأهواء الأرضية وتطغى عليه كثافة الجسد حتى تهوى به الى قرار سحيق! ان الأرض في نظر الشاعر شر لا يحتمل وجحيم لا يطاق · انها حلبة صراع الأهواء والشهوات والأطماع ، وما للشاعر وهذا كله ؟ ان روحه لتضج ، وان أنفاسه لتختنق في هذا الجو الفاسد ·

ولا يكتفي شاعرنا بالرمز والايماء ، وانما هو يصحبنا في دواوينه الأخرى التي ظهرت في تلك الفترة من الزمان، يصحبنا الى أرض المعركة لينقل الينا مشاعر الأمل والألم وليرينا صورة الرجاء واليأس · ففي شهر سبتمبر عام ١٩٤٤

تلوح فى سماء العالم بارقة أمل فى سلام يظل البشرية التى أنهكتها الخطوب وطال عليها أمد الشقاء ، فيطل الشـاعر برأسه من الزورق ، وتطل معه ، بل تكاد تسبقه أطياف ذكرياته وأحلامه :

بعـــد خمس جئتنى يا ذكــرياتى
والأمـــانى بين موت وحيــــــاة
بعد خمس يا لها فى الســـنوات
حملـت كل ذنوب الكائنــــــات
صـاح فيهـــا زحل بالظلمـــات
فطوت نجمى وسد ت طرقاتى
ورمت شــــملى ببين وشـــتات
والصـــبا نشـوان والحب مؤاتى
فاحفظيهـا فى المـــآسى الخالدات
أو دعيهــــا واذكرى لى خطراتى
ارجعى لى بعض أحـــلامى وهاتى
صفو أنغامى ، وردى صـــدحاتى (١)

خمس سنوات ما أهولها هذه التى كفرت عن ذنوب الكائنات جميعا بما صبته عليهم من ألوان العذاب ٠ خمس ســـنوات قضاها العالم فى ظـــلام موحش رهيب يقبض النفوس ويوصـــد من دونها كل أبواب الأمل والرجاء ٠ خمس سنوات فيهـا تبـدد الشمل وتفرق الجمع وأزهقت المهج والأرواح ٠

(١) من قصيدة « بين الحب والحرب » ــ الشوق العائد .

وصف ما أوجزه وما أبلغه فى تصوير الهول والفزع وفى تصوير اللهفة والشوق الى عودة السلم والحب والوئام . وصف ان دل على شيء فانما يدل على مدى استجابة الشاعر لما حوله ، ومدى عمق انطباعات هذه الأحداث فى نفسه ، وانها لشديدة العمق .

وتنتهى سنو الحرب ، ويخرج الملاح بزورقه من وسط الأحراش التى اختبأ فيها ، يخرج وقد امتحنت مشاعره ومشاعر أمته ، بل ومشاعر العالم كله . ومن ثم نراه ينشر شراعه ويقترب بزورقه من شاطىء الأمان ، شاطىء الأمة العربية والوطن العربى . الشاطىء الذى انتظرته عليه جماهير الشعب لتتلقى منه قياد زورقه الهائم، ولتجعل منه قيثارا يعزف خفقات قلوبهم وخلجات صدورهم وأصوات ضمائرهم .

وهكذا نجد الزورق فى الأعوام الخمسة الأخيرة من حياة صاحبه يسبح فى ظلال المجتمع ، ونجد شعر الملاح مرآة صادقة تنعكس عليها صورة الأمة العربية بكل خواطرها وأحاسيسها . أما أناشيد الجمال والحب ، وأغانى الطبيعة والخمر ، فلم تعد الا نوعا من الذكريات والأطياف .

وقد بدأت بواكير هذا الاتجاه الاجتماعى فى « زهر وخمر » الذى صدر عام ١٩٤٣ والذى نقرأ فيه عن « سارية الفجر » و « راقصة الحانة » ، كما نقرأ فيه عن « طارق بن زياد » و « المدينة الباسلة » وحلم ليلة الهجرة وأعياد الميلاد .

وقليلا قليلا ينمو هذا الاتجاه فى نفس على محمود طه ، فلا يكاد يمضى عامان حتى نراه يحدثنا فى « الشوق العائد » عن « الحب والحرب » وعن « هزيمة الشيطان » وعن سقوط موسولينى وعن تكوين جامعة الدول العربية، وان كان لا ينسى أن يحدثنا عن « الغرام الذبيح » وعن « جزيرة العشاق » ٠

ومن خلال هذين الديوانين نرى زورق الملاح لا يمعن فى التيه ، وانما يتلمس طريق الهداية وسط الضباب الكثيف الذى اكتنفه أثناء الرحلة الطويلة ٠

ولا يمضى طويل وقت حتى نرى هذا الاتجاه الاجتماعى فى شعر صاحب « الجندول » يبلغ ذروته فى ديوانه الأخير «شرق وغرب» الذى يحمل الينا «أصداء من الغرب» و « أصواتا من الشرق » ٠

ولم تكن أصداء الغرب فى حقيقة أمرها الا نوعا من الذكريات تطوف بخيال الشاعر وتتردد فى جنبات نفسه خافتة بين الحين والحين ٠ أما أصوات الشرق فنحن نسمعها قوية صارخة لأنها تأتى من مكان قريب ٠

ولم تكن هذه الأصوات تنبعث من مصر وحدها ، وانما من الأرض العربية كلها ٠ فالشاعر حينما اتجه الى الجماعة لم يكن يعنيه فقط أن يكون ترجمان المشاعر القومية المصرية بقدر ما كان يعنيه أن يكون شاعر الأمة العربية والقومية العربية ٠ ولئن كانت هذه النزعة قد بدت واضحة عنده

قبل ذلك حين رأيناه يقول لزوج صديقه الذى لقيه فى « الليلة الأولى » بفينيسيا : « ان أجدادى ضربوا خيامهم فى رمال الصحراء ، وخرج منهم الأنبياء والرعاة والمنشدون والفلاسفة والمفكرون ، ومنهم أيضا الفنانون المبتكرون» (١) الا أن فكرة الأمة العربية الواحدة التى تشترك فى الآمال والآلام وتجمعها وحدة اللغة والدين والتاريخ والمصير ، هذه الفكرة لا نلبث أن نراها تملأ جوانب نفسه وتفرض نفسها عليه :

ارض العروبة لا تخوم ولا صوى
ما مصر غير الشـــام أو بغـداد
واخـــوة بالمسجدين وجيرة
من آل طـــارق أو بنى عبـاد (٢)

وهو لا يكتفى بأن يذكرنا بحقيقة الوحدة الجغرافية للعالم العربى وان تعددت أسماء أجزائه ، وانما هو يحشد كل امكانياته ليبرز هذه الوحدة العربية واضحة أمام كل ذى عينين فيقول :

لم تنأ بغـداد عن مصر ولا بعدت
لبنان والمسجد الأقصى وشـــهباء
اى التخوم تناءت بين اربعهـــا
لهـــا من الروح تقريب وادناء

---

(١) أرواح شاردة .
(٢) قصيدة « صاحب الاهرام » ـ الشوق العائد .

ارض عليهـــا جرى تاريخنا وجرى
دم به كتب التـــاريخ ابنـــاء
مبارك غرســـه ، منـــه باندلس
والقادســـــية والبرموك اجنـــاء
خوالد النفح لم يذهب بنضرتهـــا
حر وقر واصــباح وامساء (١)

فهو في هذه الأبيات يسوق الأدلة والبراهين على وحدة الأمة العربية ، ويخرج من ذلك كله بالحقيقة الخالدة التى لا جدال فيها :

وما هي الا امـــة عربيــــــة
موحدة في فـــكرة ولسان (٢)

فهذا البيت على ايجازه الشديد يلخص كل مقومات الوحدة في كلمتين : اللغة والفكر٠ وما أروع كلمة «الفكرة» هذه حينما يلقى بها الينا على محمود طه لتفتح أمامنا آفاقا رحبة للتفـكير فيهـا والوصول الى كل ما يريد ٠ اليست وحدة « الفكرة » هذه هى وحدة العقيدة ؟ أليست هى وحدة التاريخ ؟ اليست هى وحدة التراث الحضارى ؟

بلى ! انها ذلك كله وأكثر من ذلك كله !

على أن هذا التحول الخطير فى حياة على محمود طه

---

(١) قصيدة « يوم الملتقى » ـ الشوق العائد .
(٢) قصيدة « لقاء ودعاء » ـ شرق وغرب .

من رجل يعيش لنفسه الى رجل يعيش للناس، ومن شاعر يتغنى بمشاعره الفردية الى شاعر يتغنى بمشاعر كل عربى من الخليج الى المحيط ، لم يكن هذا التحول نوعا من الصدفة البحتة ، وانما كان نتيجة لظروف عصيبة فرضت نفسها على الشاعر وعلى الأمة العربية كلها ، اذ لم تكد تسكن العاصفة العاتية التى اجتاحت العالم كله ابان الحرب ، حتى تجمعت بقاياها فى سماء الوطن العربى ، ولم تلبث أن استحالت اعصارا مدمرا يأتى على كل شىء ، ولم تلبث الأرض العربية أن غمرتها وتدافعت عليها أمواج الكفاح والنضال من أجل الحرية والاستقلال ٠

لقد تحملت الأمة العربيـــة ويلات الحرب أملا فى الاستقلال الذى وعدها به المستعمرون ان هى آزرتهم فى الحرب ٠ ولم يأل العرب جهدا فى مســاعدة الحلفــاء الذين لم يكد ينعقد لهم لواء النصر حتى تنكروا لوعودهم ، وضاع صوت الحرية العربية وسط ضجيج مهرجانات النصر فى لندن وباريس ٠

وبقلوب ملؤها المرارة والاصرار على بذل المهج والأرواح من أجل الاستقلال ، خاض العرب معــارك الحرية ، وجرت دماؤهم أنهارا تطهر الأرض الطيبة من رجس المعتدين ٠

وأمام هذه الصورة المروعة ، لم يكن يسيرا أن يهرب الملاح الى زورقه حيث يسلم نفسه للنوم الهادىء العميق حتى تنتهى المعركة ، وانما كان الطبيعى أن نراه يجرى ويلهث،

وينذر ويتوعد ، ويقذف من فمه حمما من جحيم بعد أن كان يسكب قطرا من شـهد · ولم يخلف على محمود طه ظننا به ، فسرعان ما اعتمد قيثاره وراح يتنقل بين ربوع الوطن العربى من أقصاه الى أقصاه · فهو تارة على ضفاف النيل يسترجع ماضى مصر العريق ، ويأسى لما صارت اليه أحوالها على أيامه ويستنفر همم أبنائها لاعادة المجد التليد· يقول :

فيـالك مصر مالجـلال امس
علتـه غبرة وطـوته حجب
وابهم فهو رجـع صـدى وطيف
بعيـد ليس يسـتجليه قرب
ذوت ريا ملامحـه وحـالت
منـاقبه فهن اذى وسـلب

ويخرج من هذه الحسرات ، أو قل يفيق منها على صورة الحاضر التى تروعه وتفزعه، فلا يكاد يصدق عينيه، ويتساءل فى مرارة :

احقا ما يقـال شـيوخ جيـل
على احقـادهم فيـه اكبوا
وكانوا الأمس ارسـخ من جبـال
اذا مازلزلـت قمم وهضـب
فمـالهم وهـت منهم حلـوم
لها بيد الهـوى دفع وجـلب

الارحـــام مقطعـــة وارض
تعـادى فوقهـا اهل وصـحب
واسواق تبـاع بهـا وتشرى
ضـمائر هن للاهواء نهب
يطوف بهـا النفـاق وفى يديه
صـحائف افعمت زورا وكتب
يكاد الليـل ان ينسى دجاه
اذا نشرت وياخذ منـه رعب (١)

ولم يكن ما صارت اليه أحوال مصر من السوء هو كل ما يروع الشاعر ، بل ان محاولات الاستعمار لتمزيق وحدة وادى النيل والتفريق بين مصر والسودان كانت تمثل فى نظره خطرا داهما يهدد مصر بالفناء ويهدد السودان بالوقوع فريسة فى قبضة الاستعمار الى أبد الآبدين . ومن ثم نراه يهتف من أعماقه :

اخى ! ان وردت النيل قبل ورودى
فحى ذمامى عنـده وعهودى
وقبـل ثرى فيه امتزجنا ابـوة
ونسـلمه لابن لنا وحفيـد

وهو لا يالو جهدا فى تذكير الشعبين الشقيقين بما يربطهما من أواصر اللغة والدين والتاريخ ، وهو لا يخفى قلقه واشفاقه من أن تتحكم أيد أجنبية دخيلة فى مياه النهر

(١) من قصيدة « مصر » ـ شرق وغرب .

العظيم التى تتدفق فتحمل معها الخصـــب والنماء حيثما حلت ·

سيجريه ما شـــاءت مطامع قومه
ويحبسه ما شـــاء خلف سدود(١)

على أن على محمود طه لم يكن شاعر وادى النيل فحسب ، وانما كان ـ كما قلت من قبل ـ شاعر أمته العربية كلهـا · لا تكاد تمر بها حادثة الا صاغها شعرا رائعا حتى لتحس وأنت تقرأ قصائده أنها تؤلف فيما بينها صورة تفصيلية دقيقة لكل أحداث العصر وما كانت تتعرض له الأمة من المحن والخطوب· فهو يلم بقضايا العرب ويندد بالوعود الزائفة التى يغرى بها الغرب هذه الأمة العظيمة · ولا يكاد يرثى شهيد حرب أو فقيد سياسة الا ألم بالموقف السياسى ووقف عنده وأطال الوقوف · وحتى فى تحيته للأبطال العرب نراه لا يطيل ، ولا يلبث أن يتخلص من التحية ليعرض علينا صور كفاحهم ومشاكل أوطانهم ·

ولعل المشـــكلة الكبرى التى كانت – ومازالت ـ تواجهها الأمة العربية هى مشكلة فلسطين · ولم يغب عن بال على محمود طه أن السهم الذى يوجه الى فلسطين انما يوجه الى الأمة العربيـــة كلهـا ، و أن الجرح الدامى الذى أصاب فلسطين هو فى الواقع جرح كبير فى قلب هذه الأمة· وما أسرع ما تحول هـــذا الاحساس فى نفس الشـــاعر الى

---

(١) قصيدة « على النيل » ـ شرق وغرب ·

انغام عذبة شجية وقعها على قيثارته علها تأسو هذا الجرح أو علها تخفف من حدته · استمع اليه يقول :

فلســـطين مالى أرى جرحهـــا
يسيل ويابى الغـــداة اندمالا
تنازعهـــــا حيرة الزاهـــدين
وتنهشـــها شـــهوات تقـــالى
فيا للبريئـــة مـــاذا جنـــت
فتحمل مالا يطـاق احتمالا (١)

وليس ثمة شك فى أن قضية فلسطين كانت تشغل جزءا كبيرا من حياة شاعرنا المهندس وتفكيره · وربما لم يظفر قطر عربى من على طه بما ظفرت به فلسطين · فلطالما حدثنا عنها ، ولطالما اســـتنفر العرب لاســـترداد الوطن السليب · وكأنى به كان يرى فى شعره بوقا ينفخ فيه فيحدث ضجيج هائل يهز مضاجع الغافلين من أبناء الأمة العربية · انظر اليه يرى رؤساء العرب يجتمعون فى القاهرة لتكوين جامعة الدول العربية، فيسرع اليهم يستحلفهم بالله أن يذكروا اخوانهم الذين أخرجوا من ديارهم وســـلبت أموالهم بغير حق ، فيقول :

بالله ان جئتم الوادى وناســـمكم
ثـــراه ، فهـــو ازاهير وانـــداء
وطاف بالذكريات الأمس واستبقت
بالدمع عين وبالأشـــواق حوباء

---

(١) قصيدة « الى أبناء الشرق » ــ شرق وغرب ·

فاقضوا حقوق اخاء تستجير به
أخت لكم في صراع الدهر عزلاء
طعامهـا من فتات العيش مسغبة
وريهـا منـه ايلام واشـقاء
احلها ذهب الشارى وحرمها
عصر به حرر القـوم الأذلاء
حربان أثخنتاها أدمعـا ودمـا
تنزو بها مهجة كلمى واحشـاء
هذى فلسـطين ، أو هذى روايتها
ماذا تقولون ان لم يحسـم الداء
تطلعت لـكم ولهى أليس لهـا
على يديكم من العـلات ابراء ؟
حملتم العهـد فيهـا عن أبوتكم
ان البنين لحمل العهـد أكفاء (١)

ولا يكاد على محمود طه يذكر بطلا من أبطال العروبة المكافحين فى سبيل تحرير أرضها الا تمثلت أمام عينيه مشكلة فلسطين . وكأن أشباح القتلى الذين استشهدوا على الأرض الطيبة لم يكونوا يفارقون خياله ، وكأنما كانوا يلحون عليه اذا تحدث عن بطل من الأبطال أن يستنفر العرب ليأخذوا بثأرهم . ففى تحيته للبطل السـورى « فوزى القاوقجى » بعد عودته من قتال مرير دام أكثر من

(١) من قصيدة « يوم الملتقى » ــ الشوق العائد .

عشرين عاما ، تتراءى هذه الأشباح أمام ناظرى الشاعر . فنراه يعرض لتلك المأساة التى تلطخ جبين الانسانية فى عصرها الحديث :

وقالوا عـــالم قــد جملــوه
فلم يعـد الشـــناعة والدمامة
تنـــاثرت المـــالك فيـــه حتى
لتعجز ان تبين لهـــا حطـــامه
متاهات تفصـــــل بها الليـــالى
ولا يدرى بهـــا فلك نظـــامه
فلسطين الشـــهيدة فى دجاه
مفزعة الخـــواطر مســـتضامه
اقـــام المســـتبد على حماها
فعاث بهـــا وافردها طغـــامه
وجـــاء بآبق لفظتـــه دار
وافـــاق يحملهـــا آثامـــه
أبـــاح له على كيـــد جناهـــا
وشـــاطره على خبـــث مـــدامه
وعلمـــه الرماية واجتبـــاه
فســــدد فى مقاتله سهامه(١)

ان مشكلة فلسطين فى نظره ليست مشكلة شعب اغتصبت أرضــه واستبيحت دياره ونهبت أموله . انها

(١) من قصيدة «عودة المحارب» ــ شرق وغرب .

ماساة الضمير الانسانى كله ، ووصمة عار فى جبين العالم المتحضر ·

ولقد شـاءت ارادة الله أن يكون صـــوت فلسطين هو آخر لحن يصدر عن قيثاره الذى طالما أطرب الجماهير · ففى أخريات أيامه تعود القوات العربية المقاتله فى الفالوجة بعد أن ضربت أروع الأمثال فى البطولة والفداء · وأمام « موكب الأبطال » ، ووسط الجماهير المحتشـــدة للقائه ، يقف على محمود طه ليحيى فيهم روح البطولة النـــادرة فيقول :

والمجـــد ان تحمى وراءك قـــرية
ضــاعت مسالكها وضاق رحيبها
جن الحديد بارضها وسمائها
فجــرى وطار تصيبه ويصيبها

شدت يد الفولاذ حول نطاقهـــا
حلقا تصيح النار : كيف اذيبها ؟
بالروح والايمـــان أنت قهرتهـــا
بأسا ، فلان على يديك صـــليبها

ولا نكاد نمضى بعيدا عن الأرض العربية فى فلسطين حتى نرى الزورق سابحا على أمواج بردى تنبعث منه ألحان التضحية والجهـاد · ففى ســوريا ولبنــان كانت جيوش الفرنسيين تصبعلى الشعب سيلا من جحيم، ويتطلع الملاح

فيرى رءوسا تتطاير وأشلاء تتناثر ، وأرواحا تزهق ، ودماء تسيل رخيصة من أجل الحرية والاستقلال ، فينتفض الشاعر كماينتفض العصفور بلله لقطر، وينشدمنذرامتوعدا هؤلاء الطغاة الآثمين :

الا ايها الشامخ المطمئن
رويدا فان الليالى حبالى
ومالك تنسى على الأمس يوما
به كاد ملكك يلقى زوالا
فتقذف بالنار سورية
وترمى بلبنان حربا سجالا
شباب امية طوبى لكم
اقمتم لكل فداء مثالا
دعتكم دمشق فما استنفرت
سوى عاصف يتخطى الجبالا
وفى ذمة المجد من شيبكم
دم فوق أروقة الحق سالا (١)

وكأنما أحس طائرنا الغرد وبلبلنا الصداح أنه مازال يحلق فى سماوات قريبة ، وأن جناحيه أقوى من أن يقفا به عند سوريا ولبنان، فنراه يغرب بهما الىشمال افريقيا. وهناك ، على الشاطىء الافريقى يطالعنا الزورق وقد تلطخ شراعه بالدماء ، وتترامى الى أسماعنا أصداء شدو حزين. فقد رأى الشاعر — ويا هول ما رأى !

(١) من قصيدة «الى ابناء الشرق» — شرق وغرب ..

على تونس وبمـــــراكش
تروح السيوف وتغدو اختيالا

وهكذا كان على محمود طه شاعر القضية العربية ان صح هـذا التعبير · فقدآثر أمتـه بأعذب ألحانه واشدها وقعا فى النفوس · ومن عجب أن ننظر فنرى شاعر اللذة والمجون يصبح شاعر الكفاح والنضال ، وأن نجد أناشيد الحب عنده تختلط بملاحم الحرب · ماذا أقول ؟ لقد أصبح الشاعر ولعا بحديث الحرب ، كلفـا بشعر الملاحم ، حتى لم تعد الأرض العربية وحدها هى التى تشده اليها وتربط لسانه بها ، ولم تعد حروب عصره وحدها هى التى تلهب مشاعره وتفجر على لسانه ينابيع البيان والسحر ، فنراه يتجاوز حدود زمانه ومكانه ، ويحدثنا عن أندونيسيا وهى تخوض بحار الدماء فى ثورتها ضد الهولنديين ، وينعى على الغرب الجائر وانجلترا العاتية هـذا العدوان المسلح الذى شن على المواطنين الآمنين ، فى قصيدة تقرع الآذان قرعا شديدا يقول فيها :

سـحائب حمـر أم سـماء تضرم ؟
ام الشمس يجرىفوق صفحتها الدم؟
على مشرق الاصـباح من اندونيسيا
سـيوف تغنى او حتـوف ترنم
وفوق رباها يزحف الموت ضـــاحكا
على جثث منهن يروى ويطعـم

فراديس شرق ذيد عنهن اهله
وهن لأهـل الغرب نهب مقسم
يدار بهـا ماء الجماجم مثلمـا
يدار على الشرب الرحيق ويسجم (١)

وهو يحدثنا عن « المدينة الباسلة » ستالينجراد فى كفاحهـا البطولى ضـد الغزاة الذين اقتحموا أسـوارها ، ويسترجع صورة كفاح أسطورى كتب له الخلود فى تاريخ الانسانية هو كفاح طروادة الذى تغنى به هوميروس شاعر اليونان العظيم فى الياذته الخـالدة . استمع اليـه يقول مخاطبا هذه « المدينة الباسلة » :

طلعوا جبابرة عليـك وثاروا
ووقفت انت وروحك الجبار
عصفوا ببـابك فاستبيح فلم يكن
الا جهنم هاجهـا الاعصـار
حرب اذا ذكرت وقائـع يومهـا
شـاب الحديد لهولها والنـار
لو قيل ابطـال العصـور فمنهمو
لحمـاتك الاعظام والاكبـار
او عاد « هومير » وسـحر غنـائه
ورأى ملاحمهم وكيـف تثـار
وهمو حماة مدينة محصورة
دكت على حراسـها الأسـوار

---

(١) شرق وغرب .

نسى الذى غناه فى طروادة
وشـدا بهم ، وترنم القيثار (١)

وكما تجاوز الشاعر حدود المكان ، فقد تجاوز حدود الزمان أيضـا ، وراح يغوص فى أعمـاق الماضى ويلتقط صور البطولة والفداء التى تبز ما تناقله الناس فى الحرب العـالمية الأخيرة من أحاديث موانىء الغزو وفرقه الفدائيين «الكوماندو» ، فطالعته صورة « طارق بن زياد » وقد وقف على الصخرة الشـماء فى الأندلس ، بينما فتح له التاريخ أنصع صفحاته ليسجل فيها للاسلام والعروبة أروع آيات البطولة والتضـحية . وأمام تلك الصورة المشرقة ، وقف الشاعر يتسـاءل وقد بهرته شـجاعة هذا القائد العربى وجنده :

أشباح جن فوق صدر الماء
تهفو بأجنحـة من الظلماء ؟
أم تلك عقبان السـماء وثبن من
قنن الجبال على الخصـم النائى ؟
لا ، بل سـفين لحن تحت لـواء
لمن السـفين ترى وأى لـواء ؟
ومن الفتى الجبـار تحت شراعها
متربصا بالموج والأنواء ؟ (٢)

---

(١) زهر وخمر .
(٢) زهر وخمر .

وهكذا استحال الغناء الرخيم الى زئير وهدير ، وبعد أن كنا نرى الشاعر مشرق الوجه ، نشم في فمه رائحة الخمر ونرى في عينيه أرق الليل ، أصبحنا لا نراه الا مغبر الطلعه مجهم الوجه منتفخ الاوداج . وبعد ان كان الملاح التائه يعيش لنفسه وهواه ، أصبح يضطرب فيما تضطرب فيه الجماعه من الاهوال والمحن والخطوب . واقرا ـ ان شئت ـ الجزء الخاص بالشرق في ديوانه « شرق وغرب » لتجد فيه دموع الأمة تجرى حزنا على « شهيد ميسلون » وعلى محمد صبرى أبو علم ، وعلى الأمير شكيب أرسلان . ونقول دموع الأمة لأن هذه المراثى التى نقرأها للملاح التائه لا تصور فجيعته الشخصية بقدر ما تصور فجيعة الأمة العربية كلها .

ومثل هذه المراثى التى لا يصدر فيها الشاعر عن شعور ذاتى وانما يصدر عن شعور الجماعة ، قصائده التى يحيى بها أبطال الكفاح العربى مثل قصيدته فى استقبال البطل السورى «فوزى القاوقجى» عند وصوله الى القاهرة وهو فى طريق عودته الى بلاده بعد ما يزيد على عشرين عاما من الكفاح والنضال والاغتراب ، وقصيدته « من الأعماق » التى رحب فيها بالسيد أمين الحسينى مفتى فلسطين حين أفلت من قبضة الاستعمار ولجأ الى مصر فى صيف عام ١٩٤٦ ، ثم قصيدته التى استقبل بها الزعيم المراكشى عبدالكريم الخطابى حين أفلت من قبضة الفرنسيين فى بور سعيد بعد عشرين عاما قضاها منفيا فى جزيرة

رينيون بأقاصى الباسفيك • ولنستمع اليه فى هذه القصيدة الأخيرة التى تتجلى فيها براعة الاستهلال اذ يقول :

لا السيف قر ولا المحارب عادا
ويح البشير باى سلم نادى
الأرض من أجساد من قتلوا بها
تجنى العذاب وتنبت الأحقادا
فاض السحاب لها دما مذ شيعت
شمس النهار فخالطته سوادا
رأت الحداد به على احيائها
أتراهمو صبغوا السماء حدادا ؟

ويمضى الشاعر فىذكر ما للعرب من مآثر علىالحضارة الانسانية ، ثم ينتقل الى الحديث عن نضال الزعيم المغربى، ويوجه اليه الخطاب قائلا :

الأهل أهلك يا امير كما ترى
والدار دارك قبة وعمادا
انى نزلت بمصر او جاراتها
جئت العروبة امة وبلادا
مدت يديها واحتوتك بصدرها
أم يضم حنانها الأولادا
ولو استطاعت رد ما استودعتها
ردت عليك المهد والميلادا
واتتك بالذكر الخوالد طاقة
كأجل ما جمع المحب وهادى

ويسائله بعد ذلك عما لقيه فى نفيه من صلف الطغاة وعسفهم ، ثم يعود الى كفاحه فيشيد به والى بطولته فيمجدها ، الى أن يختم قصيدته بهذا البيت :

ظلموا هواه اذ احب بلاده
ما كان ذنبا ان احب فؤادى (١)

وواضح أن الملاح التائه هنا لا يعبر عن نفسه بقدر ما يعبر عن شعب مصر والشعب العربى كله ، ولا يترجم مشاعره وحده وانما يترجم مشاعر الأمة العربية كلها تجاه هذا البطل العائد الى حماه .

وهكذا أصبح علي محمود طه شاعر الجماعة بحق ، فهو يذوب في الجماهير العربية، يدق طبول النصر للعائدين من ميادين القتال ظافرين ، ويطلق النواح والعويل على شهدائها الذين قدموا أرواحهم فى ساحة الشرف والخلود. وهو فى هذا وذاك لا يكف عن التغنى بآمال الأمة وآلامها. ولكنه لا يقف من هذه الآمال والآلام موقف المتفرج أو المصور ، وانما يتقدم خطوة أخرى ليرسم لأمته طريق المجد والحرية والخلاص من براثن الاستعمار . والطريق الوحيد في نظره هو طريق القوة التى تخشى وتهاب ، فالقوى بكل أرض ينصى .

وماذا يفيد الراى لا سيف عنده
وماذا يصيب القول يوم طعان ؟

---

(١) قصيدة « بطل الريف » ـ شرق وغرب .

على الباس فابنوا ركنهـا وتاهبوا
بمستقتل من حولهـا متفـانى
تلاقى به رايات كل شعوبه
واسيافهم من صـلبه ولدان
كامواج بحـر زاخر متـلاطم
ينابيعه شـتى ذرى ورعان (١)

وهو يكرر هـذا المعنى كثيرا ويصبه فى قالب نكاد نلمسه بأيدينا اذ يقول :

لم يترك السيف الجواب لسـائل
او ينس من مترقب ميعادا
سـالت حلوق الهـاتفين دما وما
هزوا لطاغية الشعوب وسادا (٢)

ولـكن الشاعر يعرف أن القوة المـادية فى المعركة ليست كل شيء ، وأن القوة المعنوية لا تقل أهمية عن قوة السلاح ، وأن لا بد من تآزر قوة الروح وقوة السلاح كى يتحقق النصر · ومن ثم نراه يسـتثير العرب دائمـا بأن يضرب على وتر حسـاس فى نفوسهم حين يذكرهم بأنهم يجاهدون فى سبيل الله ويدافعون عن حوزة الاسلام :

فى الله فى الحق ، فى الاسلام كل دم
يسيل فيهـا وجرح ليس يلتـام

---

(١) من قصيدة « لقاء ودعاء » ـ شرق وغرب .
(٢) من قصيدة « بطل الريف » ـ شرق وغرب .

وهو لا يفتــأ يردد فی شــعره أنهم أصحاب حق ، وأنهم انما يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيله وابتغاء ظهوره .

قالوا هو الحق ما نسعى لنصرته
يا بؤســه كم هوان اهــله ساموا
يا شرق يا شرق لاتخدعك دعوتهم
واقبض يدا فحــديث الحق أوهام (١)

على ان الوتر الذى يكثر شاعرنا من الضرب عليه هو استعادة مجد الآباء والأجداد . ولقــد كان على طه يعرف كيف يستنفر العرب ، وكيف يثير فى عروقهم الدم الحار، فنراه يكثر من ترديد مثل قوله :

السنا بنى الشرق من يعــرب
اصولا سمت وجباها تعالى ؟! (٢)

ويعود مرة أخرى الى نفس الفكرة يحللها ويستقصيها فيقول :

لولا لوامع من نهى وبصائر
تغزو كهــوفا او تؤم وهادا
لــم يرق عقــــل او ترق سريرة
وقضى الوجود ضلالة وفسادا
راع الطغاة شــعاعه فتساءلوا
من نص هـــذا الــكوكب الوقادا

---

(١) من قصيدة « من الأعماق » ـ شرق وغرب .
(٢) من قصيدة «الى ابناء الشرق» ـ شرق وغرب .

ان تجهلوا فسلوا به آباءكم
أيام شع عدالة ورغادا
هل ابصروا حرية الا به
او شيدوا لحضارة أوتادا
حملت سناه لهم يد عربية
تبنى الشعوب وتنسج الآبادا
هى امة بالأمس شادت دولة
لا تعرف العبدان والأسيادا (١)

وهو لا يكتفى بذكر أمجاد العرب القدماء وما أقاموا من حضارة وما أظهروا من عبقرية فى نظم الحكم والسياسة والاجتماع ، وانما هو يستفزهم لاستعادة هذا الماضى المشرق الوضاء ، ويحذرهم من الاخلاد الى الوعود الزائفة والأمانى الكاذبة التى يعللهم بها ساسة الغرب .

قل للدعاة المحسنين ظنونهم
بالغرب ، ماذا فى السراب لماتح ؟
لا تغرينكمو وعود مخالف
يطأ الممالك بادعاء مصالح
تمضى السنون وانتم من وعده
تتقلبون على ظهور اراجح
والله لو حسر القناع لراعكم
قبر اعد لكم وخنجر ذابح

(١) قصيدة « بطل الريف » ـ شرق وغرب .

من كل مصاص الدماء منوم
يدعى بمنقذ امة ومصـــالح (١)

فالشاعر يرى الغربيين أعـداء وان تظاهروا بالمودة ويرى وعودهم للعرب سرابا خادعا لايغنى عن الحرية شيئا. ولقد أثبتت الأيام صدق ظنه وصحة فراسته ، فقد مضت السنون والأعوام ولم تثمر الوعود الزائفة شيئا ، ولم يجد العرب بدا من أن يستخلصوا حريتهم من أيدى المستعمرين بالكفاح المتصل المرير .

وهكذا نرى ان العاصفة التى تعرض لها العالم كله فى فترة الحرب ، وتعرضت لها الأمة العربية لأعوام طوال بعد تلك الفترة ، هذه العاصفة لم تحطم زورق الملاح وانما دفعته دفعا ، وقذفت به على الأمواج قذفا ،ولم يكن اندفاع الزورق فى طريق التيـه والضلال ، وانمـا كان الملاح قد عرف طريقه ، الطريق الذى اندفعت فيـه جمـاهير الأمة العربية كلها .

(١) من قصيدة « شهيد ميسلون » ـ شرق وغرب .

خاتمة المطاف

وتمتد يد القدر فى الخفاء الى قلب الملاح فتودع فيه علة تثور به بين الحين والحين فتهد كيانه هدا وتعصف به عصفا. ومع هذا فلم يك صاحبنا زاهدا فى الحياة ولا راغبا عنها ، وانما كان محبا لها مقبلا عليها بشوق جارف ونهم شديد . وكأنى به أحس فى أعماقه أن الأجل لن يمتد به طويلا فراح يعيش حياته بالطول والعرض والعمق جميعا. ولقد كانت العلة كفيلة بأن تجلل حياته بالسواد ، وتلف العالم من حوله برداء الحداد فلا يرى فيه مظهرا لروعة أو جمال . وكانت كفيلة بأن توصد أبواب قلبه ومنافذه من دون الحب والخمر والنساء ، وأن تحفر لشعره مجرى آخر يتحدر فيه بين صخور الحزن والكآبة والأسى والعذاب . ولكنه طرح علته وراء ظهره وراح يعيش كما يعيش الناس، بل أكثر مما يعيش الناس . وكأنى به كان يريد أن يحظى من الحياة بنصيب المعمرين وان ضنت عليه بالعمر الطويل.

لقد كان يعشق الجمال فى كل لون من ألوانه ، وكان يعيش للحب فى كل معنى من معانيه ، وكان يلتمس المتعة فى كل صـــورة من صورها . ولئن كنا قد رأيناه يتخبط فى بحر لجى أثناء « رحلة التيه » فلأنه اندمج فى الحيـــاة

حتى اصبح ذرة من ذراتهـا السابحة فى آفاق الوجود ·
واذا كنـا قد وجدناه يتأرجح بين المتناقضات حتى ليكاد
يجمع بينها فى نفسه ، فذلك لأنه حياة بأكملها ·

ولم يكن المرض ليحد من انطلاقة شـاعرنا الملاح ،
وانما كان على العكس من ذلك يفجر الطاقات الهائلة الكامنة
فى نفسه الشابة الفتية · ولم تكن فكرة الموت تلقى على
الـكائنات من حوله ظلا أسـود قاتما يقبض النفس بقدر
ما كانت تضىء له فى أعماقه جذوة متأججة ينعكس ضوؤها
على كل ما فى الحياة فاذا هو مشرق وضاء ·

وهكذا عاش الملاح التائه محبا للحياة ، مرتفعا على
علته ، يحاول أن يقهرها وألا يجعلها حائلا بينه وبين الأمل
والرجاء · كانت نفسه متفتحة تحـاول أن تعب من موارد
الحياة الجميلة النيرة، وكان حبه للحياة أقوى من أن تنال منه
العلة الخبيثة التى كانت تحطم قلبه تحطيما · ولعلنا نعجب
حينما لا نجـــد للشاعر ـ على كثرة ما قال الشعر ـ بيتا
واحدا يذكر فيه علته أو يشكو فيه من الحياة ·

أتراه لم يكن يذكر هذه العلة لأنه لم يكن يعرفها ولم
يكن يحس لها وخزا بين حنايا ضلوعه ؟ ذلك ما لا سبيل
الى تصديقه بحال من الأحوال · فالمرضى هم أشد الناس
احساسا بالمرض، والشعراء هم أسرع الناس الى الاستجابة
لهذا الاحساس · ولـكن يبدو أن العـلة لم تكن تلح على

صاحبها الحاحا شديدا والا استحال شعره أنينا متصلا وعويلا لا ينقطع ٠

لقد كانت حياته تجرى هادئة وادعة ، ومع هذا لم تكن تخلو من أزمات تصيب قلبه فيتوقف الزورق عن المسير ، وتسقط القيثارة من يد صاحبها ، ولا تكاد ترى فى الزورق حياة أو تسمع له صوتا ٠ حتى اذا انكشف الكرب وعادت للقلب سكينته ، عاود الملاح رحلته ووصل منها ما انقطع أو ما هم أن ينقطع ٠

وكما كانت آمال الشاعر تكبر مع الأيام ، كذلك كانت العلة الكامنة فى أحشائه تزداد عتوا مع الزمن ٠ ويصبح الشاعر ذات يوم فاذا المرض يعاوده ويلح عليه الحاحا يلزمه السرير الأبيض ٠ وفى المستشفى الايطالى بالقاهرة يقضى صاحبنا فترة الراحة والعلاج، حتى اذا كان يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٩ وهو الموعد المحدد لخروجه من المستشفى ، تدخل القدر ولعب لعبته الرهيبة ٠ فقد رأى الطبيب أن صحة المريض تستدعى بقاءه بالمستشفى يوما أو يومين آخرين ٠ فثار الشاعر بالمستشفى والطبيب ٠ انه يريد أن يخرج الى الحياة لأنه على موعد معها ، وما ينبغى له أن يخلف الوعد ٠

ثورة من أجل الحياة تتسلل من خلالها اليد السوداء فى صمت وهدوء الى ذلك القلب الحائر فتقبضه قبضة يخر معها الشاعر جثة هامدة لا حركة فيها ولا حياة ٠

وهكذا استجمع الملاح قواه ، ونهض ينـادى الحياة باعلى صوته ، ولكنها صمت أذنيها ولم تسمع النداء ٠

وكانت تلك الثورة العنيفـة فى قلب صاحبهـا هى الصحوة التى تسـبق الموت ٠ وبانتهائها ينتهى نصـيب الشاعر من هذه الحياة ، ويسدل الستار وعلى المسرح هدوء وصمت عميقان يمتدان الى الأبد ٠

ويعود على طه الى الشـاطىء الذى بدأ منـه رحلتـه الهـائمة ٠ يعود محمـولا على الأعناق ليكفن فى شراعه وليدفن فىزورقه ٠ وهناك ، على ضفاف النيل بالمنصورة، توسد المـلاح ثراه ، وبقيت القيثـارة الحزينة ترجع همسا رفيقا يقول : ها هنـا توارت جثة الملاح ٠٠ ها هنـا رسا الزورق٠٠ ها هنا طاب للملاح المقام٠٠ ها هنا وجد الملاح الشاطىء الذى قضى حياته تائها عنه ٠٠ ها هنا ٠٠ خاتمة المطاف !!

فى الميـزان

والآن ، وبعد أن صحبنا الملاح التائه فى رحلة الحياة منذ رأى النور فى مهده حتى احتواه الظلام فى لحده ، وبعد أن استوحينا أشعاره فى محاولة لرسم صورة لمراحل الحياة التى عاشها صاحبها من واقع هذه الأشعار التى انسابت تعبر عن نفسه مع انسياب تيار الزمن .

الآن ، ينبغى لنا أن نرتفع عن الموت والحياة ، وأن نتأمل هذه الشاعرية الفذة ، ونستشف كنهها ، ونستجلى ملامحها ، ونقف على أبرز خصائصها ومقوماتها .

خيوط ثقافية

أي شاعر هذا الذى نحن بازائه الآن ؟ أهو واحد من أولئــك الشعراء الذين لا تقرا لهم الا وقد أجهــدتك أمور الحياة فأنت تلقى بنفسك فى فراشك وتلتمس عندهم المتعة العاجلة والراحة اليسيرة ؟ أم هو واحد من أولئك الشعراء الذين لا يعطوننا غير اللفظ الجزل والفكر العميق ، والذين لا تلبث أن تلقى أحدهم حتى يقودك الى حيث تعلم وحيث لا تعلم ، ولا تلبث معه طويلا حتى تجد نفسك فى غابة ملتفة من الفكر قد ضاقت مسالكها حتى لا تستطيع أن تجد فيها طريقك الا بعد عناء ولأى، ولانستطيع أن تجد منها مخرجا الا بعد مشقة شاقة وجهد جهيد ؟

هذا ما سألته لنفسى حينمــا هممت بقراءة الشــاعر المهندس . وما زلت أذكر أنى قرأت للأستاذ الزيات ذات يوم أننى بازاء شاعر محلق « تارة بجنــاح الملك ، وتارة بجناح الشيطان ، يشق الغيب ، ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض، ويجمع الملائكة والشياطين بالناس» (١). فبدأت أستعد لهذه الرحلة التى أصحب فيها الشاعر الى

(١) الرسالة ، عدد ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٩ .

آفاق السماء والأرض ، وأتأهب لهذا اللقـاء الرهيب مع الملائكة والشياطين ٠

ولست أنكر أن الشاعر لم يخذلني قط ، وأن الأستاذ الزيات لم يعد الحقيقة فى كل ما قال ٠ ولكن الشيء الذى استـوقفنى هو ما وراء تلك الرحلة الشاقة المضنية ، أو بعبـارة أخرى أدق ، ما تسـتلزمه تلك الرحلة من الزاد والمئونة٠ فليس ثمة شك فى أن رحلة كهذه تحتاج الى خيال خصب والى ثقافة واسعة متعددة الجوانب والأبعاد ٠ وليس الوقوف على قوة خيال الشاعر بالأمر العسير لأنه خيـال بعيد يبهر القراء من أول لقاء ٠ ولكن الشيء الذى يسترعى انتباهنا حقا هو ثقافة الشاعر ، لا لأنها قد اختفت تحت أطباق الظلمة الفكرية أو تاهت مع أشباح الخيال الواهم ، وانما لأنها تبهرك وان كنت لا تتبينها ولا تكاد تراها الا فى صورة مهزوزة تلتبس على الكثيرين ٠

وأول ما يميز هذه الثقافة أنها ثقافة فنية واسعة وان لم تكن عميقة بعيدة الجذور ٠ فالشاعر قد قرأ لكثير من شعراء العرب وأدبائهم وتأثر بهم ، وان كنا لا نجـد فى شعره ما يدل على أنه تعمق شاعرا بعينه ودار فى فلكه ٠ وكانت نتيجة تلك القراءات حصيلة لغوية ضخمة أعانته على أمره ويسرت له سبل الكلام ٠

أما العناصر الأجنبية فى ثقافته فمصدرها معرفته اللغة الفرنسية معرفة مـكنته من أن يقرأ لشعرائهـا ويعجب

بالكثيرين منهمأمثال لا مرتينوموسيه وبودلير وفرلين . ولم يقف على محمود طه عند الشعراء الفرنسيين ، وانما قرأ لشعراء الانجليز أيضا . ولعله أعجب بشيلى وجون ماسفيلد . وقد بدا تأثره بهؤلاء وبغيرهم من شعراء الغرب فى كل ما أنتج من شعر ونثر . فهو قد رأى معظم هؤلاء الشعراء الغربيين يعكفون على ذوات نفوسهم وينظمون تجاربهم فى الحب واللهو، فلم يتردد فى أن يصنع صنيعهم، ومن ثم نراه يحدثنا عن « الأندلسية » وعن « فتاة برن » ، كما يسمعنا « حديث القبلة » ويقرئنا «صفحات من حب» . وما هكذا كان شعراء العرب الذين كانوا ينفقون حياتهم فى الغزل والرثاء والمدح والفخر والهجاء .

ولو أن شاعرنا عكف على نفسه وفتح لنا قلبه لنقرأ كل كلمة خطتها فيه يد الزمن ، لو أنه فعل ذلك واكتفى بأن يحدثنا عن تجاربه لهان الأمر ، ولكنه مضى الى أبعد من ذلك ، ففى عرضه لخواطره ومشاعره ، نراه ينسى نفسه وواقعة ، وينقل الينا صورا غريبة عنمجتمعنا الذى نعيش فيه . انظر اليه مثلا وقد تكاثرت عليه الهموم ذات مساء فجلس فى غرفته وحيدا لا أنيس له ولا جليس غير الآلام والأشجان ، فيرفع رأسه المتثاقل ويخاطب نفسه قائلا :

أيها الشاعر الكئيب مضى الليل وما زلت غارقا فى شجونك

ويسترسل مع هذه الخواطر الحزينة الى أن يقول :

قد تمشى خلال غرفتك الصمت ودب السكون فى الأعماق
غير هذا السراج فى ضوئه الشاحب يهفو عليك من اشفاق

وبقايا النيران فى الموقد الذابل تبكى الحياة فى الأرماق (١)

فصورة الضوء الشاحب والموقد الذابل فى الغرفة صورة أوربية لا تمت الى حياتنا التى نحياها فى بلادنا بصلة أو سبب ٠

على أن هناك مدرسة معينة تركت فى شعر صاحبنا انطباعات واضحة جلية ، وأعنى بها المدرسة الرومانتيكية التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر ٠ وقد تجلت آثار هذه الرومانتيكية فى شعر على محمود طه فى شيئين رئيسيين هما خصوبة الخيال ، والفناء فى الطبيعة والولع الشديد بمناظرها ومجاليها ٠ وما أعرف موضوعا بلغ فيه الشاعر من الجودة والكثرة ما بلغ فى وصف الطبيعة ٠ ولنستمع الى هذه الأبيات التى يحدثنا فيها عن سنانية دمياط فيقول (٢) :

يا اخت طالعة الشموس تطلعى
للورد بين مفتح وكفيف
والطير هدار فأفق أكدر
يرمى الغمام به ، وأفق يوفى
لهفان يرتاد الجداول باكيا
من كل طيف للربيع لطيف
اهدى الشتاء اليه من نغم الأسى
صخب الرياح وأنة الشادوف

(١) من قصيدة « غرفة الشاعر » ـ الملاح التائه ٠

(٢) من قصيدة «فى القرية» ـ الملاح التائه ٠

هـذا بعبرته يجـود وهـذه
ما بين نقس فى الربى وزفيـف

ففى هذه الأبيات نرى قيثارة الشاعر تقف جنبا الى جنب مع ريشـة المصور التى تنقل الينا الصـورة بكل جزئياتها وتفاصيلهـا ، بل انى لأكاد أقـول بكل ظلالها وألوانها . فهناك الورد المفتح والورد الكفيف ، وهنـاك الريح تعبث بالربى وتزمجر بينها ، وهناك الطيور والجداول والشواديف . ماذا أقول ؟ انى لأكاد أسمع صخب الرياح وأهازيج الطيور وأنين الشواديف، وأكاد أرى الحياةتتدفق فى هذه اللوحة الرائعة .

ولم تقتصر رومانتيـكية الشـاعر على حب الطبيعـة والفناء فيها ، وانمـا تجلت فى صـورة أخرى هى الخيال الواسع الذى يغرى صـاحبه بأن يقول فى وصف النجوم وقد ظهرت ظلالها فى ماء البحر (١) :

وانتحينـا من جانب البحر مجرى
مطمئن الأمواه شـاجى الخرير
نزلت فيـه تستحم النجوم الزهر فى جلوة المسـاء المنير
راقصـات به على هزج المو
ج عـرايا مهـدلات الشـعور
وعلى صـادره الخفوق طوينا الليـل فى زورق رخى المسـير

---

(١) قصيدة «الشاطىء المهجور» ـ الملاح التائه .

فالشاعر هنا يجعـل النجوم كائنات انسانية كأنهن العذارى نزلن يستحممن فى المـاء وقد تجردن من ثيابهن وتهدلت شعورهن . وهو لايترك الماء الا وقد جمله انسانا له صدر يخفق !

وما تقول فيمن يرى الشمس سافرة تلقى أشـعتها الذهبية على صـفحة البحر فى « كابرى » فيأبى خياله الا أن يصور له الشمس حسناء قد بهرها جمالها وتتبعتها عيون الناس فاذا بهـا تستحى وتتدثر ، وتلجـأ الى البحر كى تكون فى مأمن من عيون الرقباء . وهناك تخلع نقابها وتلقى به على الصـخر وتظل عارية بغير حجـاب ! . ولا يقف به الخيال عند هذا الحد ، وانما هو يمضى الى أبعد من ذلك حين نراه يغرق هذه الحسناء فى نوم عميق وهى على هذه الحال من التجرد والعرى :

كأن الشـمس حـين رات صـباها اول الدهـر
زهاها العرى فاسـتحيت عيون الناس فى البر
فجـاءته محجبـة عـلى تيـاره تسرى
ونفضـت من غلائلهـا والقتهـا على الصـخر
وخانـت عينهـا سنة فنامت وهى لا تدرى (١)

وفى موضع آخر يغلو الشاعر فى هذا التجسيم حتى ليقول عن الليـل وقد أطلت نجومه فرأت حبيبين شجيين يسبحان بزورقهما على صفحة النهر (٢) :

---

(١) من قصيدة « جزيرة العشاق » ـ الشوق العائد .
(٢) من قصيدة « ميلاد شاعر » ـ الملاح التائه .

وسرى فيـــه زورق لحبيبين صــغيرين ينعمـــان وصـالا
يبعثان الحنين فى صــدر ليل
ليس يدرى الهمـوم والأوجالا
شهد الحب منذ كان روايا
ت على مسرح الحيـاة توالى
وجرت ملء مســمعيه احاديـ
ـث عفـا ذكرها لديه ودالا
ذلك البـــاعث الأسى والمثـير الـ
ـنار فى مهجـة المحب اشـــتعالا
لم يجب قلبه لميـــلاد نجـم
لا ، ولم يبك للبدور زوالا
بيـــد أن القضـــاء أوحى اليه
ليــــذوق الآلام والآمـــالا
فأحس الفـؤاد يخفق منـه
ورأى النـــور جائلا حيث جـالا

واستخفته من شـــفاه الحبيبين شـئون الهوى فرق ومالا
وتجلت له الحيـــاة وما فيهـــا فراعته فتنة وجمـــالا

فجثـا ضارعا : أرى الكون ربى
غير ما كان صـــــورة ومثـالا

لم يكن يعرف الصبابة قلبي
أو تعي الأذن للغـــرام مقالا

فما تقول في الليل الذى حن الى عهود الحب الخالية التى شهد قصصها وسمع بأذنيه أحاديثهـــا ؟ وما تقول في قلب الليل الذى لم يكن يعرف الصبابة ولكنه بدأ يخفق ويرق ثم يميل حتى ليجثو ضارعا في خشوع ؟

ألست معي في أنها شطحة من شطحات الخيال بعد فيها الشاعر كثيرا عن أرض الواقع ؟!

وكما تأثر الشاعر بالاتجاه الرومانسى الأوربى ، فكذلك ألم بالمذهب الرمزى الفرنسى الماما عابرا · ولكن ينبغى أن نلاحظ هنا أن فكرة الرمزية لم تتضح فى ذهنه وضوحا كاملا ، فقلما نجد عنده قصـــيدة رمزية بالمعنى الدقيق ، انما هى اشارات خفيفة فيهـــا خيوط رمزية ، ولكنها خيوط واهية لا تقوى على حملها الى منابعها الأصلية ·

والى جانب هذه الروح الغربية التى يصدر عنها على محمود طه فى شعره ، نراه ينقل الى أدبنا العربى نماذج فنية غريبة ، فينظم لنا «سيرانادا مصرية» على غرار تلك القصائد التي اعتاد العشاق فى أوربا أن يغنوها على معازفهم تحت نوافذ معشوقاتهم ·

وكأنى به أراد أن يقدم لنا الدليـــل على أنه قرأ وفهم وأعجب بما قرأ ومافهم ، فهو يترجم مقالا للكاتبة الانجليزية

«ربيكاوست» تتحدث فيه عن الأدب الانجليزى المعاصر، كما يترجم قصائد فرنسية للامرتين ودىفينى، وأخرى انجليزية لشيلى وجون ماسفيلد وأوزبرت سيتولوالشاعرة الأمريكية ادنا فنسنت (١) . وهو يقدم لهذه القصائد بتراجم موجزة لأصحابها ، ولكنها ـ على ايجازها ـ تدلنا دلالة واضحة على نواحى النبوغ والعبقرية فى قائليها ، وتدلنا بعد ذلك على معرفة الشاعر بهم معرفة واضحة بصرف النظر عنعمقها أو ضحالتها . وحسبنا دليلا على مانقول حديثه عن «شيلى» فى مقدمة قصيدة «القبرة» وعن «دى فينى» فى تقديمه لترجمة قصيدته «بيت الراعى» . بل اننا لنجد له فى «زهر وخمر» قصيدة يسميها «أغنية الحب» ينظم فيهاقول الشاعر الألمانى هنريخ هاينى :

« أيها الصحب ، هذا زمن الحب
فلنرفع الكئوس
فالربيع المرح يجعلنا جميعا اخوانا
ها هو ذا الحب البهيج .
وأنت أيتها الشمس
أتصوبين شعاعك ؟
فلنأهب لنقطف فرحين الأعناب الناضرة »

ولكننا لا نظن أنه قرأ لشعراء الألمان . بل لا نظن أنه

---

(١) ارواح شاردة .

عرف من لغة الألمان الا ما يعرفه السائح العابر حين يمر ببلادهم فيلتقط كلمات من هنا وهناك لا تغنى عن صاحبها شيئا ٠

واذا أردنا أن نقف على اتساع هذه الثقافة التى وصفتها بأنها ثقافة فنية متعددة الجوانب فحسبنا أن نقرأ له حديثه لصديقه وزوجته اللذين لقيهما فى « الليلة الأولى » بفينيسيا وذلك عندما وقفوا مشدوهين أمام الصور التى ازدانت بهـــا واجهة الكنيسة القائمة فى ميدان سان ماركو ٠ يقول على طه مخاطبا هذا الصديق :

« انظر الى هذه الصورة ٠٠٠ هذه جثة الرسول مرقص، هذا الرسول الذى ضن البنادقة على مصر بجثته فعملوا على اغتصابها » ٠

فيهتف به الرجل : « ومن أين لك ذلك ؟ »

فيرد عليه قائلا : « تأمل يا صديقى فان التاريخ يحمل مسئولية روايتى ٠ هذه جثة الرسول فى الصندوق مغطاة بأوراق الشـــجر الأخضر واللحم الطرى ٠ وها هم الخونة بأزيائهم الشرقية يعينون المغتصبين على اخفاء الجثة ونقلهـــا الى السفينة المنتظرة » ٠

فتسأله السيدة : « وماذا صنعوا بالجثة ؟ »

فيجيب : «كما ترين ، هذا مقرها، وهذا البناء هيكلها العتيد » ٠

ثم يستطرد فى الحديث عن الكنيسة نفسها فيقول :

« ان قبابها السامقة تمت الى كنيسة الحواريين المقدسة التى كانت بالقسطنطينية • ولا أزيدك معرفة ، فهذان العمودان الرخاميان استحضرا أيضا من القسطنطينية وركبا فى القرن العشرين • أما أولهما فيحمل تمثال أسد « سان ماركو » المجنح ، وأما الثانى فيحمل تمثال « سان تيودور » الجمهورى الفينيسى ، وكان محاربا استشهد فى الحرب تحت لواء مكسيمليان » • (١)

ولا يلبث صاحبنا أن ينتقل الى الحديث عن الحب ومغامرات العشاق فيشير الى قصة الشاعر الفرنسى موسيه وعشيقته جورج ساند ، هذه القصة الغريبة التى أعتقد أنه كان يعرفها جيدا •

وفى هذا الحديث الطلى يكشف لنا الشاعر عن جوانب من تاريخ الفن الشرقى بخاصة ، ويضع بين أيدينا دليلا واضحا على ثقافته الواسعة والمامه الكبير بتاريخ الفنون وسير الشعراء •

وما رأيك فيمن يقول لزوجة صديقه ان « الفن فى نظر بعض النقاد تحايل ومهارة وأساسه الاقتباس » ؟!

وما رأيك فيمن يقدم لنا دراسة مفصلة لشاعرين من أعظم شعراء النهضة الفرنسية هما شارل بودلير وبول فرلين، ويدلنا على المصادر التى استقى منها معرفته بالشاعرين كأنما

---

(١) ارواح شاردة •

يريد أن يقول: هاكم المراجع التى رجعت اليها علكم تصدقون!

أظننا قادرين بعد ذلك على أن نقول — مطمئنين — ان شاعرنا كان واسع الاطلاع على مصادر الفن والشعر ، ولكنه لم يكن يتعمقها تعمق المتخصصين أو يعكف عليهـــا عكوف الدارسين ٠

وليس ذلك مما يعيب الشـــاعر أو ينقص من قدره خاصة اذا عرفنا أن تلك الثقـافة الواسعة الضحلة فى آن واحد قد تمثلتها عقلية ناضجة متفتحة فاستطاعت أن تكمل نواحى النقص والقصور وأن تغطى هذه الضحالة الفكرية بما آتاها الله من ذهن واع وذكاء متقد ٠ وحسبنا دليلا على ذلك أن نقرأ تعليل الشاعر لخلو الفن المصرى القديم من الأجساد العارية اذ يقول لصاحبته :

« كان ذلك خضوعا — ولا شك — لروح الديانة ٠ وأنت تعرفين أن الفراعنة وهم أبناء الآلهة قد خضعوا فى حياتهم وحكمهم للكهنة وطقوسهم ٠ فكيف بالفنانين وهم من أبناء الشعب الذين كانوا ولا رأى ولا سلطان لهم ٠ ولا عجب فى أن يتأثر كل شىء فى هذا البلد بروح الديانات ، فمنه ، استمدت الشرائع جميعها هذه الطقوس التى نقرأها ٠ ولقد كان المصريون القدماء أعلى بصرا بالحياة وأسمى بالروحانيات دنيا » ٠

ولا يلبث أن يعود الى نفس الفكرة يستكملها فيضيف قائلا :

«ولكن هناك يا سيدتى أمرا آخر مرجعه النفس ، فان للاجواء أثرها الغالب فى تكوين الميول وصقل الأذواق، كأثرها فى تكوين الأجسام · وفى ذلك الجو المصرى السافر الذى يكاد يروع البصر اشراقه حتى لتعظم فيه دقائق التركيب وتبرز خفايا الصنع ، فى مثل ذلك الجو تنزع النفس الى شىء من الحجاب وتحاول اخفاء بعض النواحى المكشـــوفة المفضوحة · انها اللاشـــعورية الفنية التى تؤثر الغموض والابهام أحيانا · وهذا على العكس من الأجواء الأوربية الغائمة القاتمة التى يختنق فيها البصر ، فانها تقتضى الابانة وتلزم السفور· ومن هذا ترين ياسيدتى أن للفنان المصرى نصيبه من الاحساس الفنى بالجمال ، وقدره الرفيع من التعبير عنه » (١) ·

فروح الشرق الطاهرة المشـــبعة برحيق الديانات قـــد فرضت على الفن المصرى وقارا لا نجده فى غيره من الفنون ، وجو الشرق السافر الوضاء قد أغرى أهله بشىء من الحجاب والاحتشام · وهما تعليلان صائبان لا شك فى هذا · ولكن ماذا يقول الشاعر فى تماثيل عارية وجدت فى مقبرة من مقابر المصريين القدماء ؟ أكان مخطئا فى القضية أساسا حين زعم أن الفن المصرى القديم قد خلا من الأجساد العارية ونتج عن ذلك خطأ كل ما ترتب على هذه القضية من تعليلات وتفسيرات ؟ وهبه كان على حق فيما ذهب اليه ، فماذا هو

(١) أرواح شاردة ·

صانع بتلك الحقيقة التي تفجؤه فتنقض كل ما يقول ؟

هنا تظهر العقلية المتفتحة اللماحة التي يسعفها ذكاؤها وتسعفها فطنتها في مواقف الحرج . لا . لا تناقض بين الأمرين . فقد خلا الفن الفرعوني من الأجساد والصـــور العارية ، أما هذه التماثيل العارية التي وجدت في مقبرة «نخت» فهي « صورة من الرغبات المكبوتة التي كانت تضطرب تحت ضغط الكهنة ؛ فقد حرموا على الفنانين تمثيل الأجساد العارية . ومما أذكره أن فنانا حرا لم يطق صبرا على هذا الحرمان فصنع تمثالا متجردا صغيرا ، ولكنه خشي العاقبة فتخلص منه بالقائه في مقبرة الأميرة « تسن » التي اكتشفت منذ أعوام في حرم الأهرام . وقد رأيت هذا التمثال غير متقن الصنع نتيجة الاضــطراب الذي يطوف بأفكار الثوار ويظهر أثره في أعمالهم » .

شاعر مصور

واذا تركنا الجانب الثقافى عند الملاح التائه وانتقلنا الى الناحية الفنية ، لاحظنا أن الصورة تحتل فى شعره مكانا بارزا . فأنت لا تقرأ له قصيدة الا بهرتك روعة التصوير ودقته وبراعة الشـــاعر فى تحديد الخطوط والظلال وفى عرض الجزئيات والتفاصيل . ولعلنا لانزال نذكر مارأيناه من الصور فى قصيدته « فى القرية » وقصيدته عن «شواطىء مصر » . ولسنا نريد أن نكثر من الأمثلة فى هذا المقام لأن ذلك حديث يطول . وحسبنا الآن أن نقف عند قصيدته « ميلاد شاعر » التى افتتح بها ديوانه الأول والتى يريد بها أن يقول ان الكون كله قد احتفل بمولد الشاعر فازينت له الدنيا وليست الطبيعة أبهى حللها ، ورددت أعذب أنغامها . ولكنه لا يعرض الفكرة بهذه البساطة ، وانما هو يفصلها فى أكثر من مائة بيت . فالطبيعة تبدو عند الفجر فى غلائلها السمراء الرقيقة التى تخلعهـــا واحدة بعد اخرى فيتسلل اليها الضوء وتتألق الخمـــائل وتنطلق الطيور من وكناتها شادية مترنمة مبتهجة باليوم الجديد .

وبعد أن يسمعنا الشاعر حديثا طويلا عن هذا الفجر الذى

قال لم تبـد لى الطبيعــة يوما
حين أقبلت مثل هذا الرواء
لا، ولم يسر ملء عيني وأذني
مثل هذا السنى وهذا الغناء

نراه ينتقل الى الحديث عن جمال الصباح وكيف كان «فيه للحس غدوة ورواح» . ويمضى فى تحليل كلمة «الحسن» هذه وفى عرض صور شتى لها ، فيحدثنا عن اللهو والغناء والطرب ، وعن الأضواء التى تتراقص ، والفراش الذى يحلق على النوار ويمتص عطره ورحيقه ، وعن الأعشاب الخضراء التى تتألق على الروابى وهى غارقة فى ندى الصباح ، وعن النسيم الذى يسرى « كأنه النفس الحائر تصغى لهمســه الأرواح » .

ثم ينتقل بعـد ذلك الى الحديث عن المســاء وكيف استقبل مولد الشاعر بقمر متألق يمزق ظلمة الليل ويزداد تألقا وجمالا كلما ازداد الظلام ، وبسماء ترسب فيها السحب حينا وتطفو على وجهها حينا آخر ، وبطيور تتجاوب بأصداء تغريدها آفاق الأرض ، وبورود أغمضت جفونها مع المساء وبماء يسرى هادئا بين الصخور، وعلى صفحته تنعكس صور النجوم المشعة فى كبد السماء ، وبسكون يخيم على الأرض فيضفى عليها المهابة والجلال .

واستكان الوجود والتفت الدهر وأصغت الى صداه المقادر

لم يبن صـــورة ولكن رأته
بعيون الخيال منا البصـــائر
قال : يا شاعرى الوليد سلاما
هزت الأرض يوم جئت البشائر
فاليك الحياة شـــتى المعانى
واليـــك الوجود جم المظاهر

وبعد هذا الحديث الطويل عن احتفـــال الطبيعة فى صبحها ومسائها ، وفى ليلها ونهارها بميلاد الشاعر ، نرى الملاح التائه يصحب شعراءه الى الجنة ويطالبهم بأن يملئوها من الجمال فنونا ، وبأن ينشروا فوقها الصفو والسكون .

غير لحن يرف فيهـــا حنونا
تتغنى بـــه الطيـــور وكونا
وســـنى مشرق يضىء الدجونا
سرمدى الشعاع يمحو المنونا
رائق النور ليس يعشى العيونا

كما يطالبهم بأن يتغنوا بالطبيعة وأن يصفوا جداولها وعيونها وورودها وكل ما تقع عليه عيونهم من مظاهر جمالها وفتنتها ، ويختم قصيدته الطويلة هذه بأن يخاطب شاعره الوليد قائلا :

أيهـا الشـــاعر اعتمد قيثـــارك
واعزف الآن منشدا أشـــعارك

واجعل الحب والجمال شعارك
وادع ربا دعا الوجود وبارك
فزها وازدهى بميلاد شــاعر

وهكذا نرى أن علي محمود طه يعرض فكرته عرضـــا مسهبا ، ويفصلها لنا تفصيلا شديدا يجعلنا نرى كل جزئية من جزئياتها في وضوح وجلاء · ولنقف مثلا عند صورة من الصور التي يعرضها لنا في هذه القصيدة لنرى الى أى حد كان الشاعر مولعا بالتصور · يقول في معرض الحديث عن المساء :

وتجلى المساء في ضــوء بدر
وشــفوف غر الغلائل حمر
وسماء تطفو وترسب فيها الـ
ـسحب كالرغو فوق أمواج بحر

صور جمة المفــاتن شــتى
كرؤى الحلم أو سوانح فكر
لا ترى النفس أو تحس لديها
غير شجو يفيض من نبع سحر
افق الأرض لم يزل في حواشيه
صــدى حائر بالجـان طير
وباحنــائه يــرف ذمــاء
من سنى الشمس خافق لم يقر

وعلى شـــاطىء الغـدير ورود
أغمضـــت عينها لمطلع فجر
وسرى المـــاء هادئا فى حوا
فيه يغنى ما بين شوك وصخر
وكأن النجوم تســـبح فيه
قبــلات هفت بحـــالم ثغر
وكأن الوجود بحر من النـــو
ر على أفقـــه الملائك تسرى

فهنا نرى الصـــورة بدقائقها وتفاصيلها ، وبظـلالها وألوانها ، بل بكل ما فيها من الحركات والسكنات !

وهل أروع فى تصوير الحركة فى شعر الملاح التائه من هذه القصيدة التى ننقلها من ديوانه « زهر وخمر »والتى يحدثنا فيها عن «راقصة الحانة » فيقول :

سرت بين أعينهم كالخيـــال
تعـانق آلهـة فى الخيال

ويبين لنا كيف اندمجت هـــذه الراقصـــة فى فنها ونسيت كل ما حولها ٠

فليست تحس اشتهاء النفوس
وليست تحس عيـون الرجال

ولا يزال بالفكرة يفصلهـا ويحللهـــا حتى نتبين فى وضوح الى أى حد تعبد هذه الراقصـــة فنها والى أى مدى تذوب فى معبودها ٠ ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى وصف الراقصة وهى تؤدى رقصتها فيقول انها كانت :

تضـــم الوشـــاح وتلقى به
وفى خطوها عزة واختيـــال
كفارســـة حضنت ســيفها
والقت به بعد طول النضـال
تمـد يديهـــا وتثنيهمـــا
وترتد في عوج واعتـدال
كحورية النبع تطوى الرشـاء
وتجذب ممتلئـــات السجال
محيرة الطيـــف فى مـــائج
من النور يغمرها حيث جـال
تخيـــل للعين فيمـــا ترى
فراشـة روض جفتها الظلال
وزنبقـــة وســـــط بلورة
على رفرف الشمس عندالزوال
تنقـــل كالحلم بين الجفون
وكالبرق بين رءوس الجبـال
على اصـــبعى قـــدم ألهمت
هبوب الصبا ووثوب الغزال
وتجرى ذراعين منســـابتين
كفرعين من جدول فى انثيال
كأنهما حولهـــا ترســـمان
تقاطيع جسم فريد المثـال

أبت أن تمسـاه بالراحتين
ويرضى الهوى ، ويريد الجمال

فهذه الأبيات تصف حركة اليدين وحركة الذراعين والقدمين وتناسق هذه الحركات مع حركة الجسم كله . والشاعر لا يعرضها علينا عرضا سريعا خاطفا وانما هو يفصل الوصف ويكثر من التشبيهات التى تساعدنا على أن نتمثل الصورة فى وضوح ، وأن نتبين الحركة فى تتابع وانتظام . ولنقف مثلا عند هذين البيتين اللذين يقول فيهما :

وتجرى ذراعين منسابتين
كفرعين من جدول فى انثيال
كأنهما حـولها ترسـمان
تقـاطيع جسم فريد المثال

فهو هنا لا يكتفى بأن يقول لنا ان ذراعيها تتحركان فى خفة ورشاقة ، وانما يفصل لنا القول تفصيلا ، فيشبه الذراعين فى انسيابهما بفرعين من جدول يتدفق ، ويشبه حركتهما حول الجسد دون أن تمساه بمن يحاول أن يحدد ابعاد الجسم وأن يرسم تقاطيعه .

وبعد أن يتعرض الشاعر لأجزاء الجسم وتفاصيله ، نراه يعطينا صورة متكاملة للراقصة فى موقفها فيقول :

تلوى وتسـهو كلهـابة
تراقص قبل فنـاء الذبال

وتعلو وتهبط مثـــل الشراع
ترامى الجنوب به والشـــمال
وتعلو كأن يدا خلفهـــــا
تعذبهـــا بســـــياط طوال
وتزحف رافعـــة وجههـــا
ضراعة مستغفر فى ابتهـــال
وتســـــقط عانيـــة للجبين
كقمرية وقعت فى الحبـــال

فهنا نجد الحركة السريعة المنتظمة والصور المتتابعة المتلاحقة التى تعرض علينـــا راقصة الحـــانة فى انحنائهـــا وتثنيها ، وفى ارتفاعها وهبوطها وسرعة حركتها ·

وتلك طبيعة على محمـــود طه ، وتلك طريقته فى كل أشعاره ، فهو لايعطينا مجرد كلام يقرأ، وانما يعطيناصورا تتتابع ، وحركة تحس فى كل قصيدة من قصائده، بل فى كل بيت من أبياته ·

شاعر مهندس

ولعلنا لا نبعد كثيرا حينما ننتقل من الحـديث عن التصوير عند على محمود طه الى الحديث عن الهندسة في شعره . بل ربما كان الحديث عن الهندسة امتـدادا طبيعيا للحديث عن التصوير . واذا كان الناس قد درجوا على أن يقسموا المعرفة الانسانية الى علوم وفنون ، وأن يضعوا الهندسة فى مكانها بين العـلوم ، فان الشىء الذى نحب أن نؤكده هو ان الهندسة ليست علما محضا وانما هى علم وفن معا ، أو هى علم روحه الفن ، فبدون الابداع الفنى تصبح الهندسة أشكالا صماء وخطـوطا جوفاء لا معنى لها ولا روح ، ولا تجديد فيها ولا ابتكار . فحينما نقول ان على محمود طه شاعر مهندس ، فنحن نعنى بذلك أيضا أنه شاعر فنان .

ولعلنا لا نزال نذكر أنه كان مهندسا للمبانى ، ومن ثم كانت حيـاته قسـمة بين عمله الهنـدسى وطبيعته الشـاعرة ، أو ان شئت قلت انهـا كانت مزيجا من الهندسة والشعر . فقد كان مهندسا فى شعره ، وكان شاعرا فى هندسته . وخذ ــ ان شئت ــ أى ديوان من دواوينه الثمانية ، فلن تلبث أن تبهر بهذه الهندسـة الشعرية أو هذا الشعر الهندسى . ستطالعك على غلاف

الديوان صورة كبيرة فيها الطرافة والغرابة ، وفيها هذه الايحاءات الغريبة التى تغريك بأن تمضى الى ما بعد الغلاف . فاذا مضيت فى القراءة فلن يتركك الشاعر تفلت من يده ، وانما سيغريك بكل أنواع الاغراء ، وسينثر بين يديك الصور والرسوم حتى لا تكاد تخلو منها صفحة من الصفحات ، وحتى لتجد مع كل قصيدة لوحات يتلو بعضها بعضا كأنما هى شريط سينمائى . وانظر — ان شئت — فى حديثه عن بودلير وفرلين ، وفى المقال الذى ترجمه للكاتبة الانجليزية ربيكا وست فى « أرواح شاردة » فستجده لا يذكر اسم أديب من الأدباء الفرنسيين او الانجليز الا وضع بين يديك صورة له . وأكبر ظنى أنه عمد الى ذلك وقصد اليه قصدا ، وأكبر ظنى انه لم يأل جهدا فى الحصول على صور كل من تعرض لترجمة بعض آثارهم ، فهو يضع أمامنا صورة شيلى صاحب « القبرة » وصورة الفرد دى فينى صاحب « بيت الراعى » . ولو قد تيسر له الحصول على صورة للشاعرة الأمريكية أدنا فنسنت ملاى أو للشاعرين الانجليزيين جون ماسفيلد وأوزبرت سيتول ، أصحاب القصائد الثلاث الأخرى التى ترجمها فى القسم الثانى من هذا الكتاب لما تردد فى أن يضيفها الى تلك الحصيلة التصويرية البديعة .

وهذه الظاهرة اللافتة للنظر فى دواوين على محمود طه تدلنا على فنه وعلى نفسه أيضا . فهو رجل ذواقة فنان ،

يحب الجمال ويتعشقه · وهو رجل رقيق النفس يسير في تناوله للاشـــياء · لا يعرض عليك فكرا فلسفيا تضل في فيافيه ، وانما يعرض عليك احساسا بالفن وتذوقا للجمال يبهرك ويملأ نفسك رضا وسرورا · وهو احساس واضح كل الوضوح ، صادق غاية الصدق · وقـد تجـد فيه تناقضا عجيبا ، ولكن هذا التناقض نفسه دليل على الصدق والوضوح · فهو لا يتكلف ولا يتصنع وانما يعرض عليك انفعالات الساعة في صدق وأمانة · واياك أن تتوقع منه أن يصدر في حياته كلها عن انفعال واحد يصبه في قالب من قوالبه الشعرية ، وينتهي أمره بانتهاء الموقف الشعوري، وتنقطع صـلة الشـاعر به عنـد آخر لفـظ من ألفـاظ القصيدة .

على ان هندسة الشاعر لا تقف عند تلك الصـور والرسوم ، وانما تتجاوز ذلك الى البناء الشعري نفسه، فأنت تجد عنده حرية واسعة في اسـتخدام ألفـاظه وتنويع قوافيه . وأي براعة للمهندس اذا كان يصمم كل رسومه على طراز واحد ويصـبها جميعا في نفس القالب ؟ وأي براعة لمهندس يجعل حجرات البيت كلها متساوية في الطول والعرض والارتفـاع ، متشابهة في اللون والزخرف والزينة ؟

ان مقياس البراعة والنبوغ في الهندسة هو التجديد والابتكار والحرية المطلقة في استخدام كل ما تعلمـه المهندس ، وفي ايجاد العلاقات بين ما تعلمه وما قرأ عنه،

وبين ما رآه بالعين وما يتصـــوره بالخيـــال وأن لم يقع تحت بصره وان لم يشتمل عليه كتاب ٠

وهذه الحرية نفسها هى التى نعنيها حين نقول ان على محمود طه كان حرا فى استعمال الفــاظه وفى تنويع قوافيه ٠ ولكن لكل حرية حدودا لا تعدوها ، والا أصبحت نوعا من الفوضى ٠ فاذا كان المهنــدس حرا فى أن يصمم ما يشاء من الاشكال والرســـوم ، فانه ليس حرا فى أن يصمم بيتا بلا أعمدة يقام عليها ، والا انهار البناء ٠ كذلك حرية الشـــاعر ، أو ان شئت الدقة قلت : كذلك كانت الحرية فى الشعر كما تصورها على محمود طه ٠ فهو حر فى أن يستعمل ما يشاء من الألفاظ ولكنه ليس حرا فى أن يخرج على الميزان الشعرى على أى حال ٠ هو حر فى أن ينوع القوافى ولكن بقدر ٠ فهو قد قرأ لشعراء الانجليز والفرنسيين وأدرك تلك الحرية المطلقة التى يبيحها أولئك الشعراء لأنفسهم فيما يختص بالوزن والقافية . ولكن اللغة العربية شىء ، واللغتين الانجليزية والفرنسية شىء آخر ٠ والشعر العربى شىء ، والشـــعر الأوربى كله شىء آخـر ، وما يسيغه الذوق الغربى لا يتحتم أن يســـيغه الذوق الشرقى .

فى هذا الاطار مارس على محمود طه حريتـــه فى اللفظ والقافية . حرية تتطور بالقديم ولكنها لا تهدمه، بل انهـا تتشبث به أحيانا لأنها لا ترى فى التجديد خيرا كثيرا ، ولا تراه يستطيع أن ينهض بما ينهض به القديم ،

ولا ان يصمد لما يصمد له القديم . فهو حين يخاطب الجماعة ، وحين يتحدث عن البطولة ، يلتزم الوزن الواحد والقافية الواحدة من اول القصيدة الى آخرها . فما ينبغى أن يتقطع هذا التيار الجارف الذى يسرى فى القصيدة ، وما ينبغى له أن يضعف حينا ويقوى حينا آخر ، وما ينبغى أن تترنح القصيدة فتميل فى قافيتها الى السين المكسورة تارة ثم الى الميم المضمومة تارة أخرى ثم الى الهاء الساكنة تارة ثالثة . وانما الذى ينبغى هو أن يتحدر هذا التيار القوى من أول القصيدة الى أن يبلغ مداه عند آخرها . فذلك اليق بجلال الموضوع .

ولنقرأ معا أطرافا من قصيدة « المدينة الباسلة » التى يصور فيها الشاعر بطولة مدينة « ستالينجراد » وصمودها فى وجه الغزاة الذين دكوا أسوارها . لنقرأ أولا هذه الأبيات الأولى من القصيدة :

طلعوا جبابرة عليك وثاروا
ووقفت أنت وروحك الجبار
عصفوا ببابك فاستبيح فلم يكن
الا جهنم هاجها الاعصار
حرب اذا ذكرت وقائع يومها
شاب الحديد لهولها والنار
لو قيل ابطال العصور فمنهمو
لحماتك الاعظام والاكبار

او عاد « هومير » وسحر غنائه
ورأى ملاحمهم وكيف تثار
وهمو حماة مدينة محصورة
دكت على حراسها الأسوار
نسى الذى غناه فى طروادة
وشدا بهم ، وترنم القيثار

ثم لننظر بعد ذلك كيف يصور على محمود طه كفاح هذه المدينة حينما التقى الجمعان العظيمان داخل أسوارها :

عجبا ! أأنت مدينة مسحورة
أم عالم حاطت به الأسرار
طرق محيرة يضل ويهتدى
فيها الكماة ، وليس ثم قرار
عزت على قدم العدو كأنما
من زئبق صيغت بها الأحجار
ومنازل مشبوبة ، وكأنها
للجن فى وادى اللظى أوكار
وترى زبانية الجحيم ببابها
ضاقت بهم غرف وناء جدار
يتصارعون بأذرع مخضوبة
والسقف فوق رءوسهم ينهار
يتنازعون بها الطباق خرائبا
دميت على انقاضها الأظفار

ما زلت صامدة لهـــم حتى اذا
سهت العقول وزاغت الأبصـــار
وتقبض المســـتقتلون ، وعربدت
أيدى الرماة ، وعرد البتـــار
وتقوض الحصن المنيع ولم يكن
الا جـدار يحتـــويه دمار
وقسا عليك المرجفون وحدثوا :
أن ليس تمضى ليـــلة ونهـار
أطبقت كالنسر المحلق ، ما لهـم
منـــه ولا من مخلبيه فـــرار
وتفرســـتك قلوبهـــم فترنحـوا
رعبـا ، وانت الخمر والخمـــار
وخبت مدافعـهم وذاب حـديدهم
والثلج يعجب واللظى المـــوار

أتراه كان يستطيع أن يتنقل في هذه القصيدة من وزن الى وزن ومن قافية الى أخرى ويحفظ على القصيدة قوتهـا وتماسكها ووحدتهـا ؟ أكان النفس القصير المتقطع يستطيع ان يؤدى ما أداه النفس الطـــويل المتتابع مع القافية المضمومة التى لا تسكن ولا تنفتح ولا تنكسر ؟

ومن الطريف أن شاعرنا قد تعلم الموسيقى حين تعلم الهندسة · والموسيقى هى هندسة الأصوات كمـا يقال ، ومن ثم تعـاونت الثقافتـان على خلق جو موسـيقى بديع يحتويك حين تقرأ له .

وارید أن استوقفك لحظات قصارا عنـــد بعض النماذج التى تصور الشاعر مهندسا حقا . فاقرأ ـ ان شئت ـ قوله فى قصيدة « الموسيقية العمياء » :

هو القلب ، هو الحب وما الدنيـا لدى الحب
سوى المكشوفة الأســـــرار والمهتوكة الحجب
حـــوى الآمـــال والآلام والفرحـــة والحـــزنا
حوى الآباد والأكوان فى لفـــظ وفى معنى
وما جـــلاه من ســـواه الا توأم النـــور
وما ســـــماه اذ ناداه غـــير الأعـــين الحـــور

فلا شك أنك واجد فى هذه الأبيات تقسيما موسيقيا جميلا . وكأنى بعلى محمود طه قد تصور البيت الشعرى خطا مستقيما فراح يقسمه الى أبعاد متساوية . أو كأنى به يتصوره بيتا يريد أن يضع له تصميما بديعــا ، فهو لا ينقلك من حجرة تروعك الا الى حجرة أخرى لا تقـل روعة عن سابقتها ، وهو يفتح فى كل حجرة نوافذ يتسرب منها هذا الجو الموسيقى الحالم الذى يملك عليك مشاعرك ويحملك حملا على أن تعجب بالشاعر اعجابا لا حد له .

وما رأيك فى هذا البيت :

حـــوى الآمـــال والآلام والفرحـــة والحـــزنا

ألست تحس ان الشاعر يرسم البيت رســـما ، ويفيض عليه من الظل والنور ما يكسبه روعة وجمالا ؟

الا ترى هـــذه المناطق المظلمة التى تمر بها وأنت تقراه والتى تسلمك الى مناطق أخرى يغمرها الضوء والنور ؟ السـت ترى الأمل يعقبـــه الالم والفرحة يتلوها الحزن وكأنما هو يريد أن يجعل لكل شطر من البيت نصيبه من الظـــل والنور حتى لا ترى أحدهما معتما كئيبا والآخـر مشرقا نيرا ؟!

واستمع الى الشــاعر يحدثنا عن كابرى فى قصيدته « جزيرة العشاق » فيقول :

ترامى حولنا الأضــوا ء اطـــوافا من الـدر
فمن زرق الى صـــفر الى خضر الى حمـــر

مرة أخرى نلتقى بالظل والنور . بل اننا لنرى اللون فى هذه المرة . فى الشطر الأول من البيت الثـــانى نرى الزرقة والصـــفرة ، وفى الشطر الثـــانى نرى الخضرة والحمرة . ونرى فوق ذلك هذا الذوق الفنان فى اختيار الألوان وتوزيعها . فقد كان يستطيع أن يضع الأخضر الى جانب الأزرق ، والأصفر الى جانب الأحمر . ولكنه اختار الزرقة والصفرة فى جانب ، والحمرة والخضرة فى الجانب الآخر حتى لا يطغى لون معين على قسم من الأقســـام ، وحتى يحدث بينهما هذا التناسق البديع .

فلو قد قال مثلا :

فمن زرق الى خضـــــر   الى حمـر الى صـــفر

لرأيت الشطر الأول بلون البحر والشطر الثـانى بلون الشـفق · ولـكنه وضـع الحمـرة الى جانب الخضرة حتى يحدث التوازن . وكأنى به يتصور البيت الشعرى لوحة فنية كاملة وليس مجرد خطوط وزوايا . لوحـة فيها الظل والنور ، بل وفيها الألوان المختلفة التى توزع توزيعا بارعا حتى لتخلب الأبصار وتستهوى الأفئـــدة والنفوس .

شاعر الموسيقى والغناء

ويسلمنا الحديث عن الهندسة الى الحديث عن الموسيقى في شعر ملاحنا التائه : « فان دراسته للهندسة قد تركت أثرها فى أدبه وشعره . ومن هنا كان شغفه بالموسيقى ونزوله على ما يقتضيه حسن الأداء وجمال التوقيع . والموسيقى تمت الى العلوم الرياضية بأقوى سبب ، بل ان هذه العلوم هى أساسها الأول ودعامتها الكبرى »(1) . ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان أول شيء يبهرنا عندما نقرأ لعلى محمود طه هو هذه الموسيقى الرائعة التى سعى اليها سعيا حثيثا ووفق اليها توفيقا شديدا حتى لتجد اللفظ وقد اختلط باللحن فلا تدرى اتسمع كلاما يقال أم لحنا يوقع .

وأينا سمع أغنية « ليالى كليوبترة » ولم يطرب لها ، وأينا قرأ :

أين من عينى هاتيك المجال
يا عروس البحر يا حلم الخيال
أين عشاقك سمار الليالى
أين من واديك يا مهد الجمال

---

(1) على أيوب ـ الرسالة ، عدد ٦ مارس سنة ١٩٥٠ .

موكب الفيضان وعيد الكرنفال

وسرى الجندول في عرض القنال(١)

دون أن تسحره هذه الموسيقى العذبة ، ودون أن تملك عليه نفسه وقلبه وعقله جميعا !

وكأنما أعدت الطبيعة شاعر « الجندول » ليكون لحنا من ألحانها وصوتا من أصواتها . فمنذ درجت قدماه على هذه الأرض ، كانت موسيقى الطبيعة تطرق مسمعه خافتة كالهمس حينا ، صاخبة كالرعد حينا آخر ، ولكنها لم تكن تفارقه على أى حال . فهناك ، على حافة الغدير ، وتحت ظلال الأشجار ، ووسط حقول الأرز والقطن ، كان يجلس مع رفاقه تترامى الى أسماعهم اصوات السواقى والنواعير تئن انينا لذيذا ما أجمل وقعه فى النفوس ! حتى اذا هدأت السواقى وسكنت النواعير تسلل الى أسماعهم هذا الصوت الرقيق الذى يحدثه الهواء حينما يداعب الزرع والأشجار ويتلوى بينها فى خفة ورشاقة . وذاك الصوت الجميل الذى يحدثه الماء حينما يطلقه الفلاحون من سجنه فى حياض الأرز فيصطفق اصطفاقا ، ويسمع له صوت يشبه القهقهة أو الرقص التوقيعى . وبين الحين والحين يطرق مسامعهم تغريد طائر شفه الوجد فبكى ، أو استخفه الطرب فشدا . وربما أقبل المساء والصبى يلهو مع رفاقه فاذا أصوات الضفادع التى توجد حيث يوجد الماء ، وتكثر حيث تكثر زراعة الأرز ، اذا

---

(١) قصيدة « الجندول » ــ ليالى الملاح التائه .

أصوات هذه الضفادع تعلو شيئا فشيئا ، وتنتظم شيئا فشيئا حتى لتؤلف فيما بينها نشـــيدا جماعيا كأبرع ما تكون الأناشيد الجماعية !

فى هذا المهرجان الموسيقى العظيم الذى تقيمـــه الطبيعة حينما تخلو الى نفسها حيث لا صخب ولا ضجيج، وحيث لا يعكر صفوها أصوات العربات وصياح الصائحين وكثرة الغادين والرائحين ، فى هذا المهرجان الكبير ، بدأت النفس الرقيقة تتشرب تلك الألحان المختلفة المؤتلفة فى آن واحد ، حتى اصبحت مجمع ألحان تود لو اتيح لها ان تنطلق لتملأ الدنيا غناء وشدوا .

ويشب الصبى ، وتشب معه هذه النبتة الضئيلة التى غرستها فى نفسه يد الطبيعة ، فاذا هو محب للغناء، كلف بالموسيقى ، حريص على تعلمها واتقانها .

ثم تتصل الأسباب بين الشاعر وشعراء المذهب الرمزى الفرنسى ، فيلفيهم قد ولعوا بالموسيقى وعمدوا اليها فى أشعـــارهم ، فلا يتردد فى ان يلحق بالموكب الرمزى الذى تجد فيه الألحان الكامنة فى نفسه ســـبيلا الى الانطـلاق .

وتتفاعل هذه العوامل كلها فى نفس على محمود طه، وتنتج لنا آخر الأمر شعرا هو الموسيقى ، وموسيقى هى الشعر . واقرأ — ان شئت — قطعة من اشعاره لترى كيف يسحرك النغم فلا تلبث أن تضطرب معه فتعلو

حين يعلو وتهبط حين يهبط ولا تستطيع من أسره فكاكا ولا خلاصا .

ولقد توسل الشاعر الى هذه الموسيقى العذبة التى تترقرق فى جميع اشعاره بكل ما من شأنه أن يضفى على شعره هذا الجو الموسيقى الحالم . ألفاظ شعرية موحية ، وأوزان تتنوع بتنوع الموضوعات التى تطرقها كل قصيدة من القصائد ، وقوافى شائقة منتقاة تدل على ذوق فنان ومزاج موسيقى مفتتن بالغناء . وتلتقى هذه الروافد الثلاثة لتصب فى نهر موسيقى عظيم تلجأ اليه النفس عندما تضيق بها الحياة ، فتتطهر فيه من آلامها ومتاعبها .

ولنقف هنيهة لنتأمل هذا الجانب الموسيقى فى شعر صاحبنا ، ولنرى مبلغ ما أصاب من توفيق . ولنقرأ معا قصيدة «الموسيقية العمياء» التى يقول فيها:

زواها الدهر لم تسعد من الاشراق باللمح
على جفنين ظمآنين للأنداء والصبح
امهد النور : ما لليل قد لفك فى جنح ؟
أضىء فى خاطر الدنيا وواز سناك فى جرحى ؟
ارى الأقدار يا حسناء مثوى جرحك الدامى
أريها موضع السهم الذى سدده الرامى
انيلى مشرق الاصباح هذا الكوكب الظامى

دعيه يرشـــف الأنوا ر من ينبوعها السامى
وخـلى ادمع الفجـــر تقبل مغـــرب الشمس
ولا تبـكى على يومـــ ك أو تاسى على الأمس
اليك الكون فاشـــتفى جمال الكون باللمس
خذى الأزهار فى كفيك فالأشواك فى نفسى

فما تقول فى هذا اللحن الخافت وتلك الموســـيقى الهادئة الحزينة التى تعلو من حولك حتى تكاد تحتويك ؟ ألست تحس هذه المواساة الصـــادقة بالقلب والروح ؟ ألا ترى أن الشاعر قد اختار ألفاظه من تلك التى تشع من حولهـا ظلالا كئيبة مقبضة مثل : البـكاء ، والأشواك وجنح الليل ، وأدمع الفجر ، والكوكب الظامى ، والجرح الدامى ، والســـهم الذى سدده الرامى ؟ وأنه فوق ذلك قد تعمد القافية المكسورة التىتتلاءم مع النفس الكسيرة التى تحملها هذه الموسيقية العمياء بين جنبيها ؟

أجل ! ما أبلغ هذا الحزن الذى ملأ نفس الشاعر وفاض منها على تلك القصيدة نغما هادئا حزينا يثير فى النفوس بواعث الألم العميق من أجل هـذه الموسيقية الحسناء التى تعيش فى مأساة تدمى شـبابها وتمزق قلبها ، وتأبى مع ذلك أن تبوح بها الا لهذا القيثار الذى تعبث به أناملها فيكاد يبكى بكاء ما أمره وما أوجعه !

هذا هو الشاعر الحزين يعتصره الألم . وهـــذا

قيثاره لا تكاد تنبعث منه تلك الأصوات الجريحة حتى تستجيب له سحب الحزن والدموع ، فاذا هى تتـــكاثف ويتراكم بعضها فوق بعض ، واذا بنـــا نعيش فى تلك الظلال القاتمة ، نشارك الموسيقية العمياء حزنهـــا ، ونواسيها فى مأساتها .

ولنترك موسيقيتنا العمياء بعد أن امتلأت نفوسنا حبا لها واشفاقا عليها ، ولنلحق بالشاعر تحت ظـلال « الكرمة الأولى » (١) لنسمع لحنا آخر هو لحن الفـــرح والمرح والحبـــور :

الكأس والقيثـــــار　　يا ربـــة الحســـن
يا ربة الأشـــــعار　　غنى بهـــا غـــنى
غنى بهـــا روحـــا　　علـــوية الومـض
لـــو ادركت نوحـــا　　عشـــــنا بلا أرض
عشـــنا كأحـــلام　　فى خاطـــر الأكوان
فى عـــالم ســـام　　لا يعرف الأحـــزان
هاتى اسقنى هـــانى　　من دنهـــا المختـــوم
انسى بهــــا الآتى　　من عمـــرى المحتـــوم

الست تسمع هذا الطـــرق الخفيف السريع الذى يصور الشاعر جذلان فرحا قد استخفه الطرب فراح يرقص على هذه الأنغام العذاب ! ثم ألا توافقنى على أن كلمات : الكأس ، والقيثار ، والومض ، والأشـــعار ،

---

(١) زهر وخمر .

والاحلام ، كلها من الكلمات التى تشرح الصدر وتبسط النفس وتلقى عليهـا اشـعاعات من الأمل والنـور لا حصر لهـا ؟ ألا ما أبعـد البون بين لحن « الموسـيقية العمياء » وموسـيقى « الـكرمة الأولى » ، وما أبعد الشقة بين شاعر الجندول في موقفى الألم واللذة ، والحـزن والسـرور !

ونترك مواقف الالم والبهجة الى مواقف الثـورة والهياج العصبى فيطالعنا لون جديد من النغم كهذا الذى نسمعه فى قصيدة « اندونيسيا » التى يستهلها الشاعر بقـوله :

سحائب حمـر ؟ أم سماء تضرم ؟
أم الشمس يجرى فوق صفحتها الدم؟
على مشرق الاصباح من أندونيسيا
سـيوف تغنى أو حتـوف ترنم
وفـوق رباها يزحـف الموت ضاحكا
على جثث منهـن يروى ويطعـم

فأى قرع عنيف هذا الذى نسمع ؟ وأى ألفـاظ هادرة تلك التى نراها تتقاذف ؟ وأى موسيقى صاخبة هذه التى تصك آذاننا ؟ وأى جو ملتهب هذا الذى تنقلنا اليه القصيدة ؟

ألا ما أهـول السـحائب الحمر ، والسـماء التى تتضرم ، والشمس التى يجرى فوق صـفحتها الدم !

وما أهول السيوف والحتوف والجثث التى يعيش عليها الموت فى طعامه وشرابه ! وما أعظم توفيق الشـــاعر فى اختيار الميم المضمومة لتكون قافية لهذه القصيدة الثائرة ! حقا . لقد أبدع الشاعر فى موسيقاه ايما ابداع ، ووفق فيها أيما توفيق - وكأنى به ينسجها من قلبه نســجا ، ويسكبها من روحه سكبا ، أو « كأنمــا كانت لديه خبرة تمكنه من أن يقتنص الكلمات الشعرية فى القصيدة التى يضعها ، فاذا هى كعقد من الجواهر تتألق فيه حباته » كما يقول الدكتور شوقى ضيف(١) .

ولقد تأصلت تلك النزعة الموسيقية فى نفس شاعرنا المهندس وتشعبت فيهــا حتى لنراه يســعى الى أصحابها من شعراء الغرب ويترجم من قصائدهم ما كان فى لحمته وسداه قطعا موسيقية تعزف . ففى ترجمته لقصيدة « القبرة » للشاعر الانجليزى شيلى نجده يعلن صراحة أن اعجــابه بشيلى يرجع الى اعجــابه بموسيقاه ، فشعره « يتفرد بهذه الموسيقى المرحة الطلقة الصافية التى توصف بالقيثارة التى أيقظت أعذب الأنغام فى قلب الحياة ، والتى انتزعت الرقة والحلاوة من جفاء الزمن وقساوته » (٢) . وهو لا يخفى أنه اختار « القبرة » دون غيرها من قصائد شيلى لأنها « من أشهر الغنائيات فى عالم الشعر .. ومن

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر ، ص ١٣٧ .
(٢) ارواح شاردة .

احفلها بصور الخيال والجمال التى لا مشبه لها » .

ولم يكن اعجابه بشاعرى الفرنسية بودلير وفرلين، هذا الاعجاب الذى دفعه الى دراستهما فى أرواحه الشاردة لمجرد انه التقى بهما على طريق الجمال والحب والألـم والعذاب ، وانما لأنه التقى بهما فى أجواء الموسيقى الحالمة أيضا . فكل منهما كان شاعرا موسيقيا ، وكل منهما كان بارعا في موسيقاه ، على ما بين الرجلين من اختلاف كبير. ففى المنثور والمنظوم من شعر بودلير « موسيقى طلقـــة متوفزة كانتباهات الضـــمير ، رفافة رفيف التـــأملات الخاطفة على هوامش الصور العابرة . وهى بعـــد ذات ايقـــاع نفـــاذ يساير بغير ما وزن أو قافية خطرات النفس الغنـــائية » (١) .

أما فرلين فتكمن اهمية شعره « فى موسيقاه ، تلك التى وصفها النقاد بالموسيقى الموزارية نســـبة لموزار الموسيقى الألمانى العظيم » (٢) .

***

وربما كان من العسير أن نفصل حديث الموسيقى عن حديث الغناء . فالشاعر الموسيقى بطبيعته شاعر مغن مفتون بالغنـــاء . ولقـــد كان ملاحنا التائه شاعرا غنائيا بأوسع معانى الكلمة وأدقها ، ففى قصائد « الملاح التائه »

(١ ، ٢) أرواح شاردة .

و « لياليه » وفى « الشوق العائد » وفى « زهر وخمر » و « شرق وغرب » تلقانا تلك النزعة الغنائية واضحة صارخة · ولعلها لا ترى خافتة باهتة الا فى « أرواح شاردة » الذى يضم ترجمات لبعض روائع الشعر الغربى ودراسة للشاعرين الفرنسيين بودلير وفرلين ، ثم طرفا من خواطره وذكريات أسفاره فى أوربا سجلها فى الشطر الأخير من الكتاب .

أما فى منظومته « أرواح وأشباح » فتتمثل هاته النزعة فى تلك القطع الغنائية الرائعة التى تلقانا بين الحين والحين ، كحديث الشاعر عن الفنان الأول وعن « حواء » ، وكقصيدته فى « الحية الخالدة » .

ويتبقى أمامنا من اشعار مهندسنا الملاح « اغنية الرياح الأربع » وهى تعلن عن نفسها اعلانا ، فقد أرادها صاحبها أغنية فاستوت له كما أراد .

والأغنية تضرب فى التاريخ بجذور بعيدة ، فقد ألفها شاعر مصرى عاش قبل الميلاد بما يقرب من الفى عام ، ونوه بكشفها ونقلها العلامة « دريتون » الى الفرنسية عام ١٩٤٢ ، ثم ترجمها شاعرنا المهندس وأكمل بخياله الخصب ما بددته يد الزمن من أجزائها ، وقدمها لنا فى قالب غنائى يترسل فيه الحوار بروح ذلك العهد البعيد الذى نظمت فيه ·

وتتكون الأغنية من فصول ثلاثة تحكى قصة ملكات

رياح الشمال والجنوب والشرق والغرب وقد رآهن أحد القراصنة فأغراهن برحلة فى سفينته فقبلن الدعوة بعد تردد ، ثم اكتشفن أنهن بصحبة قرصان غادر يملأ شره الدنيا ، فعصفن بالسفينة ووثبن منها وهى تشرف على الغرق بصاحبها وبما فيها من ألوان المتاع .

واستنادا الى ما فى بناء « اغنية الرياح » من الفصول والمناظر والحوار ، ذهب بعض النقاد الى اعتبارها مسرحية . وليس الأمر مجرد خلاف فى التسمية . فالشاعر قد سماها أغنية ولم يسمها مسرحية ولا أوبرا. وهو يرسل شخوصه فى الغناء ارسالا ، ويحشد القصائد والأناشيد الطويلة التى تعوق الحوار وتخرج بالعمل الفنى عن جو المسرح الى الشعر الغنائى الموضوع فى اطار تمثيلى.

ومن خلال هذا الاطار نلاحظ أن على محمود طه قد ألقى على الأغنية ظلالا نفسية لانستطيع تجاهلها أو اغفالها. فالذى يقرأها يحس احساسا قويا بأن شاعرنا المهندس يتقمص شخصية الشاعر باتوزيس فى كل مايفعل أو يقول. فهو شاعر فنان ، وهو شاعر انسان ، وهو بعد هذا وذاك وقبل هذا وذاك ملاح يضرب فى بحور التيه دون أن يجد له برا يستقر عليه أو يطمئن اليه :

مشرد اللب ليس يدرى تعاقب النور والظلام
هيمان من حانة لاخرى بلا قرار ولا زحام
يشد قيثاره ويشدو للنجم ، الريح ، للغمام

الشاعر الخالد

وعلى رغم ما انتج شاعرنا المهندس من أشعار كثيرة جمعتها دواوين ثمانية ، الا أننا نتساءل ونحن نشرف على الانتهاء من الحديث عنــه : هل اســتطاعت هذه الدواوين الثمانية ان تفتح له أبواب الخلود وأن تجعل منه شاعرا يتجدد اسمه على مر السنين والأيام ؟

الشيء الذى لا جدال فيه أن على محمــود طه شاعر خصب متعدد الأبعاد ، وان انتاجه لا يتصف بالوفرة بقدر ما يتصف بالتنوع · ولقد رأيناكيف استوت «أغنيةالرياح» شعرا غنائيا فى اطار تمثيلى ، وكيف كانت « أرواحه واشباحه » نمطا جديدا من التفكير وطريقة مبتكرة فى معالجة الموضوع ، ثم كيف خرج كتابه « أرواح شاردة » في صورة فريدة تلتقى فيها الدراسة العلمية بالترجمة والنثر الفنى ·

فاذا أضفنا الى ذلك دواوينه الخمســة الباقية استطعنا أن ندرك بوضوح كيف أنه لم يكن شاعرا ضحلا ولم يكن واحدا من أولئك الشعراء الذين يولدون ليموتوا أو الذين تنطلق الشهرة فى ركابهم حينا من الدهر ثم لا تلبث أن تخلفهم فى زوايا الاهمال والنسيان ·

لقد ولدت تلك الشاعرية الفذة لتبقى حية نامية ولتتجدد بتجدد الأيام وتزداد مع الزمن تألقا واشعاعا ٠

واذا كانت موجات الأثير ما زالت تحمل الينا كلمات الملاح التائه بين الحين والحين عذبة رقيقة تتماوج فى ظلال « الجندول » تارة ، وتحلق فى عوالم « كليوبترا » تارة أخرى ، واذا كان صوته ما زال يطرق أسماعنا صاخبا ثائرا يكاد يشتعل وطنية وحماسا فى مثل « نداء الفداء » الذى يقول :

أخى ! جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدا
وليسوا بغير صليل السيو
ف يجيبون صوتا لنا أو ندا

فاننا مع ذلك نتساءل : هل الغناء هو المعيار الذى يقاس به خلود الشاعر ؟ وهل هذه الأغنيات الثلاث هى كل ما بقى لعلى محمود طه على الزمن من أشعاره ؟

الذى لا شك فيه أن هذه القصائد الثلاث ليست أروع أشعاره وان كانت من أصلحها للغناء ٠ ولكن ليس كل ما يغنى بخالد ، بل ليس كل ما يغنى بجيد أو ذى قيمة اذا وزن بميزان الشعر والشعراء ٠

فما هى مظاهر الخلود التى يمكن ان نتلمسها لشاعرنا المهندس ؟

لقد كان على محمود طه طيفا عابرا ألم بحياتنا

الأدبية ، ولم يلبث أن توارى عن الأنظار وترك من بعده سيرة مضطربة يكتنفها الغموض ، وحصيلة شعرية ضخمة تنعكس عليها صورة نفسه بكل مشاعرها واحاسيسها .

ومن دراستنا لهذا النتاج الشعرى ، اتضح لنا أن صاحبه كان يتمتع بشاعرية خصبة ملهمة ، وشخصية جذابة متعددة الجوانب . فهو يبهرك حين تقرأ له . ويشدك اليه حتى لا تستطيع من أسره فكاكا أو خلاصا . بل حتى لا تريد أن ينفك عنك سحره أبدا . فهو واحد من شعراء قلائل تقرأ لهم فلا تلبث أن تنعقد بينك وبينهم أواصر المحبة والصداقة والاعجاب جميعا .

واذا كان الناس لا يذكرون شاعر الجندول الا قليلا ، فان التاريخ الادبى لهذه الأمة سيذكره دائما . سيذكره ملاحا تائها ، وشاعرا ملهما ، وفنانا عبقريا . وسيبقى اسمه أبدا مرتبطا «بالشرق والغرب» و«وبالزهر والخمر» ، و « بالأرواح والأشباح » .

مع النقــاد

وفى ختام هذه الدراسة التى صحبنا فيها الملاح التائه فى رحلة الحياة ، وتعرضنا فيها لأبرز ملامح شخصيته ومقومات شاعريته ، يجدر بنا أن نضع بين يدى القارىء مقتطفات من آراء النقاد فى شعره ، لأن هذه الآراء وان تباينت وتضاربت فى بعض الأحيان الا أنها بمثابة أضواء كاشفة تظهرنا على مختلف جوانب تلك الشاعرية الفذة وما فيها من المحاسن والعيوب .

فالدكتور **طه حسين** يصف شاعرنا بأنه « حلو الأسلوب جزل اللفظ جيد اختيار الكلام ، وان لألفاظه ومعانيه رونقا أخاذا تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه ، وأن فى شعره موسيقى قلما نظفر بها فى شعر كثير من شعرائنا المحدثين ، وأنه استطاع أن يلائم — الى حد بعيد — لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة فى جمالها وروائها وبهجتها وجزالتها » . ويضيف الى ذلك أنه « ترجمان الانسان اذا تصل بالطبيعة وضل فى فيافيها أو فتن بجمالها ، ولكنه ليس شاعر الجماعات ولا ترجمانها . شاعر مغن شخصيته أقوى من بيئته ، وليس قصاصا بيئته أقوى

من شخصيته » . (١)

أما الأستاذ **احمد حسن الزيات** فيقول ان على محمود طه « من أصدق الأمثلة للشاعر الذى خلقته الطبيعة . والشاعر الذى تخلقه الطبيعة يكون فى ذاته وفى معناه نشيدا من أناشيد الجمال ولحنا من ألحان الحب ، فيكون شاعرا فى أخلاقه ومثله وإحلامه وهندامه وسلوكه ، وفى نمط حياته وأسلوب تفكيره وطريقة عمله وطبيعة صداقته » (٢) .

ويقول فى موضع آخر :

« كان شعره صورة لشخصه ومرآة لنفسه . نقرؤه فكأنما نقرأ فى قلب مفتوح ، وننظر فيه فكأنما ننظر فى أفق منير . أجمل ما فيه الصدق ، واقوى ما فيه الجمال ، واعظم ما فيه الحب . والصدق والجمال والحب هى عناصر الرسالة الفنية التى أداها على طه . كان شعره صافى الأسلوب لأنه صافى القلب ،متسق الألفاظ لأنه متسق الخلق ، مشرق المعنى لأنه مشرق النفس » (٣) .

ويعترف الدكتور **شوقى ضيف** بأنه « أكثر شعرائنا بعد شوقى توفيقا فى صياغته الشعرية ، وكأنما كانت لديه خبرة تمكنه من أن يقتنص الكلمات الشعرية فى

---

(١) حديث الأربعاء جـ ٣ ص ١٤٧ .
(٢) الرسالة ، عدد ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٩ .
(٣) الرسالة ، عدد ٦ مارس سنة ١٩٥٠ .

القصيدة التى يضعها فاذا هى كعقد من الجواهر تتألق فيه حياته » (١) .

وفى كتابه « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » نراه يعقد فصلا يتحدث فيه عن « ضجيج الألفاظ الخلابة عند على محمود طه » يقول فيه ان « خصائصه الفنية تعود فى جملتها الى خصائص لفظية ، فليس على محمود طه صاحب نزعة فلسفية في شعره ، ولا هو صاحب نزعة نفسية ، انما هو صاحب لغة شعرية تبعث النشوة فى نفس سامعه وقارئه بألفاظها البراقة وما تحمل من رنين يبدع فيه ويفتن ، ولكنك اذا انعمت النظر فى هذا الرنين لم تجد فيه فكرا بعيدا ولا معنى عميقا وانما تجد فيه الألفاظ التى تضغط على الأعصاب بجمال ألحانها وأنغامها . فأنت عنده قلما تجد شيئا يمتع عقلك ، وانما تجد الألفاظ الشعرية المشعة أو الموحية . وكانت للشاعر ملكة جيدة يعرف بها كيف يجمع هذه الألفاظ ويراكمها فى الشعر فتؤثر فى سامعيه وكأنها تغلق الأبواب عليهم فاذا هم قد وقعوا فى شباكها » (٢) .

ونجد لهذه الفكرة صدى واسعا يتردد في كتابات

---

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر ، الطبعة الثانية ١٩٦١ . ص ١٦٣ .

(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر . الطبعة الثانية ، ١٩٥٩ . ص ١٩٩ .

الدكتورة **نازك الملائكة** عن الملاح التائه ، فنراها تقول — مثلا — « ان براعة على محمود طه فى خلق النغم الشعرى لا تكمن فى اختياره للألفاظ الشعرية وحسب ، وانما ترتكز فوق ذلك الى وضعه للكلمة فى مكانها من السطر والبيت بحيث يقوم رنين خاص وتجاوب بين مجموعات الحروف المستعملة . وهذه الظاهرة تتجلى فى شعره كله عموما ، وتتجلى بصفة خاصة فى قصائد الوصف الغنائى » (١) .

وتقول فى موضع آخر من كتابها عن « شعر على محمود طه » : « لعل الموسيقى أشهر ما عرف عن أسلوب على محمود طه ... وأبرز ملامح الموسيقى فى شعره ما أسميه بظاهرة التناغم الصوتى » . (٢) وتعرف هذا التناغم الصوتى بأنه « احساس الشاعر بالحروف احساسا خاصا بحيث تأتى فى شعره متناسقة متجاوبة » (٣) .

ومع أن هذا الكلام يكاد يكون ترديدا لرأى الدكتور شوقى ضيف فى الألفاظ الخلابة عند على محمود طه ، الا أننا نجد الكاتبة تختلف مع الدكتور شوقى حول المعانى والأفكار فى شعر على طه ، فبينما هو يذهب الى أن شعره يخلو من الفكر البعيد والمعنى العميق ، تصفه هى بشىء

---

(١) محاضرات فى شعر على محمود طه ، ص ٦٣ — ٦٤ .
(٢) نفس المرجع ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٣) نفس المرجع ص ١٤٤ .

من عمق الفكر وبعد المعنى وان لم تحدد قدر هذا الشيء ٠ فهي تقول انه « شاعر يقرؤه المثقفون الذين يهمهم أن يكون محتوى الشعر المعاصر على شيء من عمق الفكر وبعد المعنى ٠ وهؤلاء يقرءون شعره لما فيه من رموز وصور وعواطف مصقولة وذاتية متفردة أصيلة يملكها شاعر ذو ثقافة حديثة فيها غير قليل من تعقيد العصر وبعد آماده الفكرية » (١) ٠

وتعود لتقرر في موضع آخر أن « فى شعر على محمود طه جانب فلسفي لا يمكن للدارس أن يتغافل عنه، هو جانب عنايته بالانسان وصلاته الغريبة بالكون ومايحف بمولده وموته من ألغاز ومبهمات لا حل لها ٠ ولقد افتتن الشاعر بهذا الجانب الروحانى من جوانب الحياة البشرية افتتانا دائما ، فكثر فى شعره التساؤل عن المبدأ والمصير، وعن الروح والأمن ، وعن الانسان وأعماقه وحقيقته»(٢) ٠

وفى كتابه الممتع عن « على محمود طه الشاعر والانسان » يحدثنا الأستاذ **أنور المعداوى** بأن « على طه ليس شاعرا من أولئك الذين يصوغون الحياة أفكارا منظومة مجردة من أثواب الشعور ، وليس شاعرا من أولئك الذين ينقلون الحياة نقلا آليا لا روح فيه ، ولكنه من أولئك الذين يتفردون بالذاتية والأصالة عند تصوير الحياة فى لحظات

---

(١) محاضرات في شعر على محمود طه ٠ ص ١٤ ٠

(٢) نفس المرجع ص ٩٥ ٠

التوهج والتوثب والانطلاق » (١) . ويقول : « لقد كان شعره مرآة صادقة لهذا الوجود الذى عاش فيه لأنه كان صـادقا فى صحبته لتلك المرآة . لم يحاول يوما أن يقف أمامها بوجه غير وجهه ، ولم يحاول يوما أن يلقاها بملامح لونتها المساحيق أو اختفت حقيقتها وراء الأقنعة .. انه يمثل الوضوح فى مظاهر السلوك واتجاهات الفن . وقيمة الوضوح فى هذين المجالين أنه يتيح للدارسين أن يطمئنوا الى مواقع أقلامهم كلما قطعوا مرحلة من مراحل الطريق.. ومن هنا كانت حياته على لسانه سلسلة من الأحاديث ، وكانت فى شعره سلسلة من الاعترافات .»(٢)

والصفة البارزة التى يخلعها الأستاذ أنور المعداوى على شاعرنا المهندس هى أنه شـاعر الأداء النفسى . و « شـاعر الأداء اللفظى هو من يقف بك عند المعـانى الجامدة . المعانى التى تختنق بين قبضة الألفاظ الفارقة فى لجج المادية البغيضة ، ولكن شاعر الأداء النفسى هو من ينتزع من رأسك كل تهويمة ذهنية ليردها الى شعورك وهى تهويمة نفسية ، وهنا تجد على طه . » (٣)

« شاعر الأداء اللفظى هـو من يعنى بالموسـيقى الخارجية ليجذب سمعك ، وشاعر الأداء النفسى هو من يعنى بالموسيقى الداخلية ليجذب شعورك . وهنا مفرق الطرق بين موسيقى تستمد رنينها من اللفظ وحده لتهز

---

(١) على محمود طه الشاعر والانسان ، ص ١٧٩

(٢) نفس المرجع ص ١٧ ــ ١٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

منافذ الأذن . وبين موسيقى تستمد رنينها من النفس لتهز مسارب العاطفة ! نريد في الأداء النفسي تلك الموسيقى الداخلية ، الموسيقى المعبرة تمام التعبير عن حالة شعورية خاصة طبعت اداء الشاعر بطابع صوتي خاص تلمسه في انسياب النفس الشعرى أو تهدجه ، في اسراعه أو ابطائه، في اندفاع النغم الشـــعرى أو تدفقه ، في ارتفاعه أو انخفاضه . مثل هذه الموسيقى الداخلية تنقل اليك نقلا أمينا كل شحنة من تلك الشحنات الانفعالية المصبوبة في قوالب التجربة حتى لتستطيع أن تميز كل لحظة زمنية عاشها الشاعر وتركت ظلها في نفسه ... وهكذا تجـد الموسيقى التصويرية الصادقة في شعر الأداء النفسي . وهكذا تجد على طه » (١) .

وعلى النقيض من ذلك وصف الأستـاذ **عبـد المجيـد عابدين** موسيقى الشاعر بأنها «تمتع الآذان ولا توحي بما يعين على فهم المعاني والحالات النفسية ، ومن ثم كانت موسيقى المهندس لفظية ليس فيها وراء المتعة السمعية متعة نفسية » (٢) .

أما الأستـاذ **السيـد تقي الدين السيـد** فان الفكرة التي يلح عليها في كتـابه عن على محمود طه هي انه شاعر التصـوير الحسي النـاطق (٣) ، « فهو يعبر بالصـورة

---

(١) على محمود طه الشاعر والانسان ، ص ١٣١ .
(٢) بين شاعرين مجددين ، ص ١٦٣ .
(٣) على محمود طه : حياته وشعره ، ص ١٤ .

المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فاذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، واذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، واذا النموذج الانسانى شاخص حى ، واذا الطبيعة مجسمة مرئية » (١) .

وفى مقال للأستاذ **درينى خشبة** عن ملاحنا التائه ، نراه يصفه بأنه « شاعر اللذة والجمال » وأن شعره أصبح « أغنية فى فم الجيل الجديد » و « احدى أناشيد مصر الحديثة التى تهتف بها فى جنات الجمال ، وتتغناها فى بساتين الحب ، وتغازل بها روح الفن ، وتحفز بموسيقاها همم الشباب ، وتعطر بأريجها أجواء المجتمع ، وتثبت بها شخصيتها فى دنيا الشعر العالمى » (٢) .

ويكاد الأستاذ **عيسى الناعورى** يتفق مع الأستاذ درينى خشبة فيما ذهب اليه ، فعلى طه — فى نظره — « لم يكن يعرف الأصالة والابداع فى غير شعر الحب والجمال وشعر الخمر والطبيعة » . ومع ذلك نراه يعترف بأنه « منذ أن قضى شوقى لم تعرف دوحة الأدب المصرى شاعرا صافى الحنجرة مطرب التغريد مثل على

(١) على محمود طه : حياته وشعره ، ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٢) الرسالة ، عدد ٣ يناير ١٩٤٤ .

محمود طه » (١) .

وعن النزعة الانسانية في شعر الملاح التائه يحدثنا الأستاذ **عبد السميع المصرى** فيقول : « ان قلب على طه الكبير حمله أكثر مما يحتمل ، وجعله يعتقد انه مسئول عن كل بائس أو محزون . بل ان نزعته الانسانية تتعدى بيئته المحدودة لتشمل العالم كله ببرها ورحمتها » (٢).

ويضيف الاستاذ **على الهاكع** أن « روحه الفنية الخالدة لم تقبع فى موطنه وانما فاض سحرها على البلاد العربية وامتد الى الغرب . فعلى طه انسان عالمى ، وسيظل شراعه الرمزى جائبا الآفاق الى ما شاء الله » (٣) .

***

وكما اختلفت الآراء فى شعر الشاعر بصفة عامة ، كذلك اختلفت حول « أغنية الرياح الأربع » وحول « أرواح وأشباح » .. فبينما يصف الأستاذ **عبد المجيد عابدين** أغنية الرياح « بالتشتت والتناثر » وبأنها « مجموعات من الحوار لا تربط بينها علاقات وثيقة » و « أغان متناثرة لاتربط بينها وحدة قوية »(٤) ، نجد **الأستاذ دريني خشبة** يثنى عليها أجمل الثناء ويصفها بأنها

(١) الثقافة ، عدد ٢٥ اغسطس ١٩٥٢ .
(٢) الثقافة ، عدد ٣١ ديسمبر ١٩٥١ .
(٣) الرسالة ، عدد ٦ مارس ١٩٥٠ .
(٤) بين شاعرين مجددين ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

« آية فنية مشرقة البيان حسنة السبك فياضة بالحياة التى تملأ جميع جوانبها »(١) . وأن الفصل الثانى منها بوجه خاص « من أروع ما وصل اليه خيال شاعر ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الدنيا قاطبة»(٢) . يقول : « والعجيب أن تكون هذه أولى روايات على محمود طه المسرحية ويتمها مع ذلك على هذه الصورة الرائعة من الحبـــكة والحركة والتسلسل والابداع المتناهى فى التصوير واختيار المناظر الخيالية الراقصة . هذا فضلا عن بيانه المشرق وديباجته العالية وقوافيه المنتقاة وقوة تدفقه فى الحوار وحرصه على موسيقية الأوزان ، بل موسيقية الألفاظ »(٣) .

أما « **أرواح وأشباح** » فقـد قدم لها الأستاذ **توحيد السلحدار** بأنها « تحفة فنية بديعـــة ضمت الى كنز الأدب العربى الخالد » . ووصفها الأستـــاذ **أحمد حسن الزيات** بأنها «فى الصياغة مشرقة البيان منتقاة اللفظ، وفى التفكير واضحة المنهج سديدة المنطق ، وفى التخيل بعيدة الغاية قريبة المأخذ » (٤) . وقال عنهـا الأستـــاذ **خليل مطران** مخاطبا المؤلف : « جئت بالطريف من المعنى فى الصريح الشائق من المبنى ، ولئن كانت المصادر التى استنزلت

---

(١) الرسالة ، عدد ٢٤ يناير ١٩٤٤ .
(٢) الرسالة ، عدد ١٠ يناير ١٩٤٤ ..
(٣) الرسالة ، عدد ٢٤ يناير ١٩٤٤ .
(٤) الرسالة ، عدد ١٣ ابريل ١٩٤٢ .

منها الوحى غريبة فى أصلها عن المصادر العربية ، لقد وفقت الى ابراز روائعها وتقريب أبعد مغاريها بما نفى عنها الغربة وكشف آفاقا غير محدودة لطلاب التجديد والابداع من حملة الأقلام بين الأدباء الناطقين بالضاد .. ان فى مطالعة أرواح وأشباح لمتعة فكرية ولذة فنية » (١) .

ومع ذلك فالدكتور **محمد مندور** ينكرها ويقول ان احساسه نفر منها ، ويعيب صاحبها بأنه « لم يأخذ نفسه بعناء دراسة أساطير اليونان ومعتقداتهم الدينية كما يجب » (٢) ، وان « فى كتابه ما يدل على العجلة وعدم الروية سواء فى وحدته أم فى تفصيله ، بل وفى صياغته الشعرية ذاتها » (٣) . الا أنه يعترف ــ فى الوقت نفسه ــ بأن فيها « اشياء جميلة حقا ولكنها قليلة » ويقول « وأنا على تمام الثقة من أنه شاعر موهوب وأنه يستطيع خيرا من هذا ولكن على شرط أن يتخلى عن الاغراب وأن ينسى نفسه قليلا » (٤) .

والنتيجة التى نخرج بها من كل هذه الآراء التى عرضناها هى أن الملاح التائه قد شغل الناس فى حياته وبعد مماته ، وأن تراثه الشعرى قد حظى باهتمام كثير

(١) الرسالة ، عدد ٢٨ سبتمبر ١٩٤٢ .
(٢) فى الميزان الجديد ، ص ٣٢ .
(٣) نفس المرجع ص ٣٣ .
(٤) نفس المرجع ص ٣٨ .

من الباحثين والدارسين ، وان أكثرهم قد احبه وأعجب به ، وربما غلا البعض منهم في الحب والاعجاب .

ولقد حاولت فى الصفحات السابقة الا اتاثر بحب ولا كراهية ، وان أرسم لشاعرنا الملاح صورة امينة ارجو أن تكون واضحة المعالم دقيقة الأبعاد .

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٢/١٩٧٠